

محمد بن عبد الملك الزيات
صاحب النور

بقلم
محمود الهجسي

مقدمة

سألنى سائل : لماذا آثرت الكتابة عن ابن الزيات ؟ فأجبته لأنه أسطورة فى طياتها الأعاجيب !! رجل خاض آباءؤه تجارة الزيت ، وعرفوا بها ، وأريد له أن يكون مثلهم تاجر زيت ، فأبت ارادته القوية الا أن يكون أدبيا ، والا أن يكون شاعرا ووزيرا فى أكبر بلاط عرفه التاريخ .

هذه هى الأسطورة ، التى تمثل ارادة ، فعزما ، فمضاء ، والتى تجلت من خلال حياة هذا الرجل تصميميا واقداما ، أقدمها للشباب العربى ، لأنه فى مرحلة تحتاج الى توفر الارادة والعزم والى تمثل سير البطولات والكفاح .

لقد انقضى زمان التواكل والمعجزة ، ولم يبق لمتبلد فى هذا الخضم سفين ، فلا أقل من أن تجلّى للناس ألوانا من البطولات، يرونها من زوايا متعددة ، حتى لا تنزل قدم ، ولا ييهم طريق ، لأننا فى حاجة الى القدوات التى تنير لنا السبيل .

لذلك أقدم حياة ابن الزيات صاحب التنور الذى تسلق قمة المجد ، لأنه صمم على تسلقها .. والذى ملأ الدنيا دويا ، لأنه كان ملء الأسماع علما وأدبا، والذى نفر من تجارة الزيت ، لأنه أراد أن يكون وزيرا والذى انتهت حياته فى التنور ، لأنه كان شاعر حكمة ..!

الفصل الأول ملاحم عصر ابن الزيات

- ١ -

ماذا كانت بغداد حين خرج الى دنياه محمد بن عبد الملك الزيات وليدا تتلقفه أيدي مستقبله ، وتتنادى به البشائر في دار أبيه عبد الملك بن الزيات ، أحد تجار كرخ بغداد المياسير ؟؟

كانت بغداد اذ ذاك عاصمة الدنيا ، ومقر الخلافة العباسية وملتقى الحضارات ، ومهبط آمال العلماء والمفكرين ، ومنتجع الكتاب والشعراء ، ومهوى أفئدة الطامحين في الثراء والحظوة ، أو الطامعين في فنون المتعة والترف ، وكان بلاط الرشيد فيها معقد الرجاء ، ومناط الأمل لكل هؤلاء ، ومن دون هذا البلاط قصور الأمراء والوزراء والكتاب والقادة وكبار التجار ، الذين تشبهوا بالرشيد ، فافسحوا في مجلسهم لكل هذه الطوائف ، فقصدتهم من كل فجاج الأرض ، وحشث اليهم المطى تسيل ، بأعناقها الأباطح ، وأناخت رحالها في كنف رحيب ، وجناب خصيب ، وجوار وارف الظلال ، تنهل من حضارة سابعة ، أوفت على الغاية من خلاعة وجد ، وبلغت الذروة من مجانة ووقار !!

ولم تكن بغداد قد جاوزت الثلاثين من عمرها ، ولكنها فى هذا المدى القصير بدأت تتألق بين حواضر الخلافة الأخرى ، حتى حجبت نورها ، وتدفقت عليها الثروات من الأمصار ، واستبحر فيها العمران ، وأصبحت وحدها أم المدائن الإسلامية ، وموطن العلم ومجتمع العلماء ، وفاقت البصرة والكوفة ، وخطف بريقتها على حداثة عهدها أنظار كل طامح ، وجذبت إليها العلماء ، والأدباء ، والشعراء ، والمهين والماجين ، كل يبحث عن هواه فى بغداد ، وكل واجد فيها بغيته وطلبته .

وما كان لعاصمة العباسيين أن تتبوأ هذه المكانة المرموقة - وهى لم تشب عن الطوق بعد - الا بفضل ما كان لخلفاء هذه الدولة فى عهدها الأول من قوة الشكيمة ، ورجاحة العقل ، وحسن السياسة ، وبعد النظر ، ومضاء العزم ، وحب للأدب والعلم ، ومخالطة للعلماء والشعراء ، وتقدير لمكائهم ، وتشجيعهم بالجوائز والعطايا التى تفوق الوصف ، وتأريث نار التنافس بينهم ، فكل الذين تولوا عرش بغداد فى هذا العصر الأول كانوا من الخلفاء العلماء ، فرغبوا فى العلم ، واجلال العلماء والأدباء ، وسهلوا نزوحهم اليهم ، وأجروا الأرزاق عليهم ، وبالفحوا فى اكرامهم ، وقربوهم وجالسوهم ، وآكلوهم ، وحادثوهم ، وعولوا على آرائهم ، فلم يبق ذو قريحة أو علم أو أدب الا يمد دار السلام ونال جائزة أو هدية . أوراتبا (١) ، ولا يزهو العلم الا فى ظل

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٢ .

أمير يتعهد ، ويأخذ بأيدي أهله ، والناس كما يكون ملوكهم ،
وخلفاء العصر العباسي الأول من أكثر الخلفاء والملوك رغبة في
العلم ، في عصرهم تنوعت الثقافة ، وعمقت ينابيعها ، واستمتع
العلماء والأدباء بحرية القول ، والتأليف في حدود ما يقره الاسلام...
وكان بعض العلماء والأدباء ينادم الملوك والأمراء ، ويستمتع
بمقام أرفع من مقام الوزراء والكتاب .

وقد زخرت كتب الادب والتاريخ بما كان عليه خلفاء هذا
العهد من مكانة علمية وأدبية : فالمنصور كان من أحسن رواة
الحديث ، وله ذوق في الشعر ، ينتقد الشعراء ، ويعرف المنحول
والمسروق ، وكان له دفاتر علم (١) ، وكان شديد الحرص عليها ،
حتى أوصى ابنه المهدي بها عند وفاته . وكان المهدي ينتقد
الشعراء لكثرة تشبيهم قبل المدح ، لأنه كان يكره الغزل ،
وقد روى (٢) صاحب الأغاني عن أبي جعفر المنصور أنه لما مات
ابنه جعفر ، وانصرف الى قصره بعد دفنه ، قال لوزيره الربيع :

« انظر في أهلي من ينشدني قصيدة أبي ذؤيب : « أمن المنون
وريبها تتوجع » حتى أتسلى عن مصيبتى . فطلب الربيع ذلك من بنى
هاشم ، فلم يجد من يستطيعه . فقال المنصور : والله لمصيبتى بأهل
يتى ألا يكون فيهم واحد يحفظ هذا لقلة رغبتهم في الأدب أعظم

(١) البيان والتبيين للجاحظ .

(٢) الأغاني الجزء السادس .

وأشد من مصيبتى بابنى !! ثم أمر الربيع أن يحضر له من ينشده
 أياها من بين العامة ، وجد الربيع حتى أحضر له شيخا كبيرا مؤدبا ،
 وبدأ الشيخ ينشد القصيدة حتى قال : « والدهر ليس بمعتب من
 يجزع » ، فقال المنصور : صدق والله ، أنشدنى هذا البيت مائة
 مرة ليتردد هذا المصراع على ، ففعل الرجل ، فلما انتهى الشيخ
 من الانشاد خرج وفى يده صرة بها مائة درهم رغم ما عرف عن
 المنصور من شح وبخل .. أما الرشيد - الذى استقبل ابن الزيات
 حياته فى عهده - فقد كان (١) أكثر الخلفاء رغبة فى العلم والعلماء
 حافظا للشعر ، نقادا للشعراء ، وكان يحفظ شعر ذى الرمة حفظ
 الصبا ، ولقد سأل جلساءه يوما عن صدر هذا العجيز من
 الشعر :

« ومن يسأل الصعلوك أين مذهبہ ؟ »

فلم يعرفه أحد ، وكان الأصمعى مريضا لا يقدر على المجيء ،
 فأرسل اليه اسحق الموصلى ، وبعث معه ألف دينار لتفقته ، فجاء
 الجواب من الأصمعى أن البيت من قصيدة لأبى النشاش النهشلى
 وهو :

وسائلة أين الرجيل وسائل ومن يسأل الصعلوك أين مذهبہ

وسأل الرشيد من فى مجلسه يوما عن معنى هذا البيت :

(١) الاغانى ج ٥ والمزهج ١ .

قتلوا ابن عفان الخليفة محرماً ورعاً فلم أر مثله مخذولاً
وكان في المجلس الكسائي والأصمعي ، فطال الجدل بينهما
والخليفة يسمع ، فقال الكسائي : كان قد أحرم بالحج . فضحك
الأصمعي ، وتهاتف ، فقال الرشيد : ما عندك؟ فقال : والله ما أحرم
بالحج ، ولا أراد أيضاً أنه دخل في شهر حرام ، فقال الكسائي :
ما هو الا هذا ، والا فما المعنى للأحرام ؟ قال الأصمعي : فخبّرني
عن قول عدي بن زيد :

قتلوا كسرى بليل محرماً فتولى لم يتمتع بكفن
أي احرام لكسرى؟! فقال الرشيد : فما المعنى ؟ قال : يريد
أن عثمان لم يأت شيئاً محرماً يوجب تحليل دمه . فقال الرشيد :
أنت يا أصمعي ما تطاق في الشعر ..

وأعطى الرشيد الفضل خاتماً قيمته ستمائة ألف دينار مكافأة
له على روايته لأحسن بيت قالته العرب في الذئب ، وولى المأمون
ابن الجهم البرمكي ولاية من أجل بيت طلبه منه ، واشترط عليه
ذلك . والمأمون أشهر من أن يذكر بعلمه وفضله .

ولقد كان أبناء الخلفاء والأمراء يتمتعون بمثل هذه الثقافة
الرفيعة التي يتحلى بها الخلفاء ، فقد اشتغل كثير منهم بالأدب
« كإبراهيم بن المهدي » (١) أول من نبغ من بني العباس في

الترسل والشعر والموسيقى ، وله كتاب فى الأدب اسمه « أدب
ابراهيم » وكتاب الطبخ والطب ، وكتاب الغناء ، وقد ضاعت
كلها ، واعتبر ذلك أيضا فى الأمراء والوزراء كأبى دلف العجلى
سيد قومه ، فقد كان اديبا ، وألف فى سياسة الملوك والسلاح
والصيد ، والفتح بن خاقان وزير المتوكل فقد كانت له خزانة
علم لم ير أعظم منها كثرة وحسنا ، وكان يحضر داره فصحاء
الأعراب ، وعلماء الكوفة والبصرة ، واشتغل بالأدب لنفسه ، فألف
كتاب اختلاف الملوك ، وكتاب الصيد والجراح ، وكتاب الروض
والزهر . وكان عبد الله بن طاهر شاعرا مترسلا بليغا وكذلك ابنه
طاهر ، ولكل منهما مجموع رسائل . فالدولة التى يكون ملوكها
وأمرؤها على هذه الصورة يجدر بها أن تزهر بالعلم والعلماء ،
ولن تجد نهضة الا كان للملك أو الأمير أو الرئيس تأثير كبير
فيها .

من أجل هذا تسابق الناس فى هذا العصر فى مضمار الثقافة
والأدب والعلوم والفنون ، ليكونوا قريبين من نفوس خلفائهم
وأدنى الى قلوبهم « ذكر اسامة بن معقل (١) أن السفاح كان راغبا
فى الخطب والرسائل ، يصطنع أهلها ، ويشبههم عليها ، فحفظ أسامة
ألف رسالة وألف خطبة طلبا للحظوة عند السفاح ، فقال ما أراد .
وذكر أن المنصور كان شغوبا بالأسمار والأخبار وأيام العرب ،

(١) الدكتور احمد الحوفى فى كتاب الجاحظ .

يقرب أهلها ، ويجيزهم عليها ، فحفظ أسامة كثيرا منها طلبا للقرب منه . وذكر أن الهادي كان مغرما بالشعر ، يستخلص أهله ، فلم يترك أسامة بيتا نادرا ، ولا شعرا فاحرا ، ولا نسيبا سائرا الا حفظه .

وعنى الخلفاء والقادة والموسرون في هذا العصر بتربية أولادهم وتأديبهم على أيدي المؤدبين ، ولهذا صار التعليم صناعة ، وتبوأ المؤدبون مكانا عاليا ، وأحرزوا ثروات كبيرة . وهذه وصية الرشيد لعل بن المبارك الأحمر ، مؤدب ولده الأمين تلمس فيها منهج هؤلاء الخلفاء في تنشئة أولادهم ، وأخذهم اياهم بكل ألوان المعرفة ، وأدب السلوك ، فهو يقول في وصيته : « يا أحمر ! ان أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه ، وثمره قلبه ، وصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين : أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك الا في أوقاته ، وخذه بتعظيم بنى هاشم اذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة الا وأنت مغتنم فائدة تفيده اياها ، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، أو تمنع في مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة » .

هذا هو ما جعل من بغداد على جدتها وحادثة عهدها كعبة للعلوم والفنون ، وسرحا لكل ألوان الترف العقلي والمادى ، فاستقبلت ابن الزيات وليدا فى أوائل عهد الرشيد ، ثم تقلب فى أعطاف هذا العهد صبيًا ، يدرج فى ملاعب الكرخ ، ثم شابا تتفتح مشاعره على أزهى عضور العباسيين ، وتبهر ناظريه مفاتن بغداد ، وتأسر ليه مباهجها وهى فى أوج عظمتها ، وقمة حضارتها ، واتساع سلطانها . يقول جورجى زيدان (١) عن هذا العصر : « انه عصر الاسلام الذهبى ، بلغت فيه دولة المسلمين قمة مجدها فى الثروة والحضارة والسيادة ، وفيه نشأت أكثر العلوم الاسلامية ، ونقلت أهم العلوم الدخيلة الى العربية ، وكانت دور الخلفاء آهلة بالأدباء والشعراء والعلماء مثل بلاط لويس الرابع عشر ملك فرنسا فى ابان مجده » . ويقول الدكتور الحوفى (٢) « فى هذا العصر تدفقت الثروات من ينابيع شتى ، وأقبل أهل الذمة على الزراعة والصناعة واهتمت الدولة بما يكفل للزراعة قوتها من شق القنوات ، وعززت الصناعة ولا سيما النسيج ، واستخرجت المعادن من مناجم فارس ، واحتكر العرب تجارة المحيط الهندى حتى الصين ، وصار البحر الأبيض المتوسط مجالا عربيا ، وكانت البصرة ميناء العراق الكبرى

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ .

(٢) كتاب الجاحظ للدكتور الحوفى

مرفأ عالمفا؁ وامتلأت خزائن الدولة بالمال؁ وتعددت مظاهر
الشراء والترف .

كانت الجزفة تحمل الى بفر المال فى خلافة الرشفء من ملوك
الروم بالقسطنطفنة طوال مدة حكمه؁ وكانت العلاقات السفساسة
بفنه وبن شارلمان ملك فرنسا موسومة بطابع الود والتقسفر
لكانة العباسفن وسطوتهم ونفوذهم؁ وكانت تحمل الىهم من فرنسا
التحف والهدافا فقدمها السفراء بفن مظاهر التبجل والتعظم لمقام
الخلافة . « واتصلت (١) بفءاء بفجارة واسعة مع بقاع العالم
الفرى كانت معروفة فى ذلك العهد؁ وتدفقت ففها الثروات؁ وظهرت
ففها طبقة من أغففاء التجار ومفسفرهم؁ وأصبحت سمعة بفءاء
وجمالها وغناها؁ ومركزها التجارى؁ وثقافتها؁ وألوان الملذات
والسرور ففها؁ وصنوف الرشاء والترف مشهورا فى العالم كله؁
وما استطاع الرحالة أن ففءوا بفءاء فى عهد الرشفء نظفرا »

فقول ابن طباطبا : « كانت دولة الرشفء من أحسن الدول؁
وأكثرها وقارا ورونقا وخفرا؁ وأوسعها رقعة مملكة؁ فبى الرشفء
معظم الدنيا؁ ولم ففتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء
والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والأدباء ما ففتمع على باب
الرشفء؁ وكان ففصل كل واحد منهم أجزل صلة؁ وفرفعه الى أعلى
درجة » .

(١) كتاب فى قصور لخلفاء الففسفن للءكتور اءمء شلبى .

ويقول الدكتور أحمد شلبي (١) : « ان عهد الرشيد كان خطوة لنقل الدولة من عهد الصرامة والشدة في أيام السفاح والمنصور ، الى عهد طابعه اليسر والرخاء والترف ، وكانت شخصية الرشيد والبيئة التي ربي فيها من أهم الأسباب التي جعلت الرشيد يستجيب لهذا التطور ، ويتفاعل معه ، فبلغ عهده الذروة في الترف والنعيم ، وتوافرت له الدواعي التي جعلت منه عهدا ملحوظا ، ذائع الصيت ، لا في العالم الاسلامي فحسب ، ولكن في العالم المتمدنين كله. وساعده على ذلك شبابه الغض ، وقصر أيبه الذي نشأ فيه ، ورجاله الذين حملوا عنه أعباء الحياة ومسئوليات الملك ، ومهدوا له سبيل الترف (٢) وأسباب النعيم . ثم ان من المسلم به أن المال عصب المتعة وسلم الترف ، وقد توافر المال لدى الرشيد ولدى رجاله ، حتى قال ابن خلدون : « ان المحول الى بيت المال في أيام الرشيد بلغ ٧٥٠٠ قنطار في كل سنة ، وذلك غير الضرائب العينية التي تشمل الجبوب والأقمشة وغيرها » وairad كهذا في تلك الأيام كان airada أقرب الى الخيال منه الى الحقيقة ، وما بالك في خليفة كان يستلقى على ظهره وينظر الى السحابة المارة ويقول : امطري حيث شئت يأتني خراجك !! وأصبح بهذا عهد الرشيد عهد شباب الدولة

(١) كتاب في قصور الخلفاء العباسيين .

(٢) لم يتخفف الرشيد من مسئوليات الملك كما يقول الدكتور شلبي لانه كان يقزو سنة وبهج سنة كما هو مشهور . وفي ذلك يقول الشاعر :

فمن يطلب لقائك أو يرده
في الحرمين أو أقصى الثغور

ونضارتها ، وهو يعتبر فى الذروة من عهود بنى العباس ، وقد وصلت فيه بغداد الى قمة مجدها ، ومنتهى فخارها ، وامتدت الابنية على الجانبين امتدادا عظيما ، حتى صارت بغداد كأنها مدن متلاصقة تبلغ الاربعين ، وبلغ سكانها نحو من مليون نسمة »

ولقد كان أبو جعفر المنصور بعيد النظر حين رأى أن ينتقل بملكه الجديد الى عاصمة جديدة تناسب الأحداث الجسم التي بدأ يتمخض عنها العصر العباسي الأول ، ويتفق موقعها ومكاتها مع ما ينتظر لهذا الملك الجديد من سلطان عريض فى مشرق الأرض ومغربها ، فالكوفة التي نشأت فيها الدولة العباسية لم تكن بدار قرار لهذا الملك الناشئ الجديد ، لأن سوادها شيعة على وولده ، ودمشق حاضرة الأمويين لم تكن تصلح عاصمة للخلافة الجديدة ، لأنها كانت لاتزال هى وماحولها من البلاد على ولاء لبنى عبد شمس ، ثم السيوف التي أشرعت فى سبيل الدعوة لبنى العباس ، واقامة ملكهم كانت سيوف الموالى من الفرس وأهل السواد ، وفى طليعتهم الخراسانيون ، الذين بذلوا أرواحهم فى تأييد الدعوة منذ خرجت من الحمية ، كل هذا دفع بالمنصور الى أن يخطط عاصمة ملكة فى هذا المكان قريبا من استاده ودعائمه ، وعلى حدود البلاد التي آزرته فى دعوته ، ومكنت له من رقاب بنى أمية ، ثم اتخذ هؤلاء الموالى أعوانا ووزراء وقادة ، ونهج خلفاؤه من بعده على سنته ، فاستكثروا من استخدام الموالى فى سياسة الملك وتديره ، حتى استشرى سلطانهم ، وعظم نفوذهم

واصطبغت الدولة بصبغة فارسية ، وكاد يختفى من بلاط بغداد
 وجهه العربي الخالص ، الذي ظل طابع البلاط الأموي طوال حكم
 بنى أمية ، وأخذ الخلفاء يتواصلون بالموالى وحسن معاملتهم ..
 والاحسان اليهم ، حتى بلغوا اسمى المناصب ، وساعدتهم على ذلك
 حذقهم سياسة الملك ، واتساع ثقافتهم ، ونبوغهم فى البلاغة ، وحبهم
 للعلم واجلالهم للعلماء . ومن أشهر هؤلاء أبو سلمة الخلال ، الذى
 ولاه السفاح منصب الوزارة لأول مرة فى تاريخ الدولة الاسلامية
 ويحيى بن خالد بن برمك ، وولده الفضل وجعفر ، والحسن بن
 سهل ، وأخوه الفضل ، وسهل بن هرون وأضرابهم . وقد استفحل
 أمر هؤلاء الموالى حتى أخذوا يجهرون ازاء العرب بمآثرهم ،
 ويتغنون بأمجاد اسلافهم ، ويشيدون بمدنيتهم ، وانطلقوا فى ظلال
 الدولة الجديدة ينفسون عن مكبوت حقدهم ، ودفين غيظهم طوال
 عهد بنى أمية ، واشتدت الملاحاة بينهم وبين العرب ، حتى ظهر
 أمر الشعوبية ، وعلا صوتها ، ونبع من هؤلاء الموالى طائفة كبيرة
 من العلماء والأدباء والشعراء ورجال الفكر والمترجمين ، غير أن
 قوة الخلفاء فى العصر العباسى الأول لم تمكن هؤلاء من التطاول
 بنفوذهم ، وبسط سلطانهم ، لأن خلفاء هذا العهد كانوا يعتززون
 بعروبيتهم ، ويفخرون بأمجاد آبائهم ، ويحرصون على بقاء السلطان
 فى يدهم ، حتى أن كثيرين منهم قد أوقعوا بهؤلاء الموالى - رغم
 سمو مراكزهم - حينما لمسوا فيهم ميلا الى الانحراف ، أو التحيف
 من سلطانهم ، : فالسفاح قتل وزيره الفارسى أبا سلمة الخلال ،

والمنصور قتل قائده الكبير أبا مسلم الخراساني ، والرشيد فتك بالبرامكة، والمأمون قتل وزيره الفارسي الفضل بن سهل ، والمعتصم سجن قائده الأفشين حتى مات ، ثم صلب جسمه وأحرقه ، على أن كل هذه الاغتيالات لم توقف تيار الشعوبية (١) .

— ٣ —

وما ان أنشأ المنصور بغداد عام ١٤٦ هـ حتى بدأت الدولة ترسي قواعدها على دعائم ركينة من علوم الأمم التي جاورتها أو اختلطت بها ، واستقدم الخلفاء النقلة من كل جنس وملة ، وبدأ العلماء في تدوين العلوم الشرعية واللسانية وتبويبها ، وألفوا في بعض العلوم التي نقلوها الى لغتهم (٢) ، « وأضافوا اليها من عند انفسهم ، وأكثر منقولاتهم ومؤلفاتهم ضاعت ، ولم يبق منها الا بعضها ، وعلى هذا البعض كان معول الأوربيين في نهضتهم الاخيرة ، بما نقلوه منها الى ألسنتهم ، وقد نقل العرب من علوم تلك الأمم في قرن وبعض قرن مالم يستطع الرومان بعضه في عدة قرون ، وخلاصة القول أن المسلمين نقلوا الى لسانهم معظم ما كان معروفا من العلم والفلسفة والطب والنجوم والرياضات والأدبيات عند سائر الأمم المتقدمة في

(١) ممن طعن على العرب سهل بن هرون قيم بيت الحكمة ، وأبو عبيدة الراوية وعلان الشعوبية ، وكلهم من بطانة المأمون ، وممن نافع عن العرب ابن قتيبة الذي ألف كتابا في تفضيل العرب ، والجاحظ في كتابه البيان والتبيين

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ .

ذلك العهد ، ولم يتركوا لسنانا من ألسن الأمم المعروفة اذ ذاك لم ينقلوا منه شيئا ، فأخذوا من كل أمة أحسن ما عندها ، فكان اعتمادهم فى الفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والمنطق والنجوم على اليونان ، وفى النجوم والسير والآداب والحكم والتاريخ والموسيقى على الفرس ، وفى الطب (الهندى) والعقاقير والحساب والنجوم والموسيقى والأقاصيص على الهنود ، وفى الفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم على الانباط أو الكلدان ، وفى الكيمياء والتشريح على المصريين . فكأنهم ورثوا أهم علوم الأثوريين والبابليين والمصريين والفرس والهنود واليونان ، وقد مزجوا ذلك كله واستخرجوا منه علوم التمدن الاسلامى الدخيلة » .

ولما عمرت بغداد تقاطر اليها الناس من كل صوب وحذب ، وقصدوها للارتزاق بالتجارة أو الصناعة أو الأدب أو الشعر أو بمختلف أسباب الملاهى ، واختلطت فيها الاجناس ، فالتقى فيها العربى والفارسى ، والرومى والنبطى ، والتركى والصقلى ، والهندى والبربرى ، وزخرت بمختلف العقائد والنحل ، فكان فيها المسلم والنصرانى واليهودى والصابئى والسامرى والمجوسى والبوذى وغيرهم ، فترددت فى سمائها مختلف الدعوات ، وكثر فى مجالسها الجدل والتلاحى ، وأطلق الخلفاء العنان لحرية الرأى والعقيدة ، الا فيما يمس الخلافة أو الدولة ، وكان للمأمون أكثر الخلفاء تسامحا فى العقيدة ، فكان هو نفسه شيعيا ، وكان وزيره يحيى بن اكثم

سنيا ، وقاضيه أحمد بن ابى دواد معتزليا . (١) « وكانت حرية القول فى أيامه أشبه بحرية الصحافة فى البلاد المتمدنة اليوم ، ومن أشهر الأدلة على ذلك خبره مع دعبل الشاعر ، وكان متشيعا للعلويين ، كثير الهجو لبني العباس ، وله فيهم قصائد هجوها شديدا ، وأعداؤه يحرضون المأمون على قتله ، ومن جملتهم أبو سعد المخزومي ، فقد كان مغاضبا لدعبل فى أول أمره ، وكان يدخل على المأمون فينشده هجاء دعبل له وللخلفاء ، ويحرضه عليه .. فلم يجد عند المأمون ما أراد فيه ، وكان المأمون يقول :

« الحق فى يدك ، والباطل فى يد غيرك ، والقول لك ممكن ، فقل ما يكذب ، فأما القتل فأنى لست أستعمله الا فىمن عظم ذنبه » ودخل أبو سعد على المأمون غاضبا من هجاء دعبل له وقال : « أتأذن لى يا أمير المؤمنين أن أجيئك برأسه ؟ قال المأمون : لا . هذا رجل فخر علينا فافخر أنت عليه ، فاما قتله بلا حجة فلا .. وهل يقول أعذل من ذلك ملك أو أمير فى أكثر الأمم حرية رأى ؟ » .

وكان من نتائج هذه الحرية ما أشار اليه أكثر المؤرخين من « تعدد البدع الدينية (٢) ، حتى انتشرت الزندقة ، وفشا الالحاد وغلبت الشهوات الجسمية على طائفة الماديين المستهترين ، فأباحوا

(١) نفس المصدر . ومن هجاء دعبل للمأمون فى إحدى قصائده :

ويسومنى المأمون خطة جاهل أو ما رأى بالأمس رأس محمد

(٢) تاريخ الادب العربى للسيامى بيومى ج ٢ ص ٢٠٠

ما لم يكن مباحا ، ومدحوا ما كان من قبل مذموما ، وفتحت في الأبحاث
 الدينية أبواب كانت مغلقة لم تكن تجرى من قبل على الألسنة
 وتخطى الجدل في الدين - بالرغم من مقاومة الخلفاء لتيار الزندقة
 والالحاد - السياج الذي كان مضروبا ، وساعد على هذا الانحراف
 التمكين لرجال الفرس في السلطان ، ونشاط اليهود والنصارى
 في أمثال هذه البحوث ، مستترين وراء حاجة الدولة الى علمائهم
 وتقريب خلفائها وخاصتها لكثير من موهوبيهم . ولذلك كثرت
 الفتن والثورات في هذا العهد ، فثار العلويون في كثير من أنحاء
 الدولة ، وقامت ثورة في الجزيرة وفارس بقيادة سونباز المجوسى
 للأخذ بشار أبى مسلم الخراسانى ، وهبت ثورة الراوندية في
 خراسان في عصر المنصور ، وثارَت المقتنعة في عصر المهدي بقيادة
 هاشم بن حكيم المعروف بالمقنع ، وماكاد المهدي يقضى على
 هذه الثورة حتى دوى نذير ثورة المحمرة في جرجان (١) « وهم
 طائفة اتخذوا اللباس الأحمر شعارا لهم وتعاليمهم خليط من المانوية
 والمزدكية نشروها بين الناس ، وفي عهد المأمون ثار بابك الخرمي ،
 ودعا الناس الى اعتناق مذهبه الاباحى من خمر ونكاح للمحرمات
 واجترأ على المناكر واللذات ، وكان يزعم لاتباعه انه اله ، ولم يفلح
 المأمون في القضاء على هذه الفتنة فظل بابك يسيطر على بلاد
 الجبل حتى انتصر عليه الأفشين قائد المعتصم سنة ٢٢٣ هـ . .

(١) نفس المصدر ج ٢ .

وظهر في ذلك العهد طائفة جديدة من الشعراء والادباء يتباهون
 بالمفاسد وارتكاب المعاصي والتهجم على الدين والتقاليد ، واشاعة
 البدع ، والاستهتار بكل مكرمة ، والعكوف على الشراب ومجالسة
 الغلمان أياما لا يفترقون.. (١) » وكانوا يجتمعون للمنادمة وقول
 الشعر والشراب ، يهجو بعضهم بعضا هزلا وجدا ، ويشتركون
 في أموالهم وأحوالهم ، فكان مطيع بن اياس ، ويحيى بن زياد
 الحارثي ، ووالبة بن الحباب ، وابن المقفع يتنادمون ولا يفترقون ،
 ولا يستأثر أحدهم على صاحبه بمال ولا ملك ، وكانوا جميعا
 يرمون بالزندقة . وكان هؤلاء وأضرابهم ينظرون الى الدنيا من
 وجهها الاسود ، فلا يرون فيها حسنا ، ولا يعترفون لأحد بفضيلة.
 ذكروا أن مطيع بن اياس مر بيحيى بن زياد الحارثي وحماد الرواية
 وهما يتحادثان ، فقال لهما : فيما أتما ؟ قال : في قذف المحصنات
 قال : أو في الأرض محصنة تقذفانها ؟ »

على أن هذا كله لم يحجب عن سماء بغداد تلك النجوم اللامعة
 التي أضاءت جنباتها بنور الايمان والعلم ، وكانت حصنا حصينا
 للدين واللغة العربية أمام موجات الالحاد والشعوبية ، فكان من
 أئمة الحديث والفقه في العصر العباسي الأول : ابن جريج ، وأبو
 حنيفة ، ومالك بن أنس ، وأبو يوسف ، والشافعي ، والواقدي ،
 وأحمد بن حنبل . ومن أئمة اللغة والنحو : الخليل بن أحمد ،

وسيوبه ، والكسائي ، وقطرب ، والفراء ، وابن الأعرابي . ومن رواة أخبار العرب وأيامهم وآدابهم وأشعارهم : أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة معمر بن المثنى ، والأصمعي ، وأبو زيد الانصاري ، والمفضل الضبي ، وخلف الأحمر ، وغير هؤلاء ممن كانوا ذادة عن الدين واللغة أمام هذا التيار الجارف من الانحراف ، والذي كان يحاول النيل من دين العرب ، ولسان العرب . وفي هذا يقول الدكتور الحوفي (١) : « ان المجون بأشكاله المتنوعة لم يكن طابع العراق ، والزندقة لم تكد لتقرب من أن تكون مرضا شبه عام ، بل كان المجون محدودا في دائرة خاصة ، وكانت الزندقة سمة بضعة عشرات من الناس أكثرهم من نسل الفرس ، ولولا قلة عدد الزنادقة والمجان ما سجلت الكتب أسماءهم وأحداثهم ، فمن الخطأ أن نصم العراق في العصر العباسي بأن المجون طابعه ، والزندقة شعاره ، وكيف تغفل عن جمهرة الشعب وهم مؤمنون حراس على دينهم ؟ وهل من الانصاف أن تتجاهل تعقب الدولة للزنادقة وتقتيلهم ؟ وكيف تتغاضى عن آلاف العلماء وهم أصحاب جد وورع سواء منهم علماء الدين ، أو علماء اللغة والأدب ؟ وليس من الصواب أن نصف عصرا ما بالجد المطلق ، ولا أن نصم عصرا ما باللهو المطلق ، وليس من الحق أن نصور مجتمعا ما ببصغة نفر منه لأن هذا تعميم لا يصح أن يتجاوز نطاق التخصيص ، وهؤلاء النفر الذين اشتهروا في العراق بالزندقة والمجون ما هم الا قلة في المجتمع

(١) الجاحظ للدكتور احمد الحوفي .»

الكبير ، قلة منحرفة وسط كثرة لا تشاكلهم في الدين والنزعات والأخلاق ، فمن الظلم للمجتمع العراقي في العصر العباسي أن تصور مجتمعا منحلا ابا حيا مستهينا بالدين حتى في بغداد نفسها كما صورته الدكتور طه حسين في كتابه « حديث الأربعاء » ولكن الحق أنه كان مجتمعا متعدد الألوان والنزعات ، وكان في بغداد الحاد وزندقة ومجون ، ولكن هذه النزعة كانت أنصل النزعات لونا ، وأقلها عددا ، وشذوذها كان السبب في شهرتها ، ومعرفة أصحابها ، لأنها خروج عن المألوف ، ومصادمة للمجتمع ، وتبجح بضد المعروف ، ومن شأن الشاذ أن يذيع خبره ويشيع » .

على أننا لانستطيع أن ننكر مع هذا الدفاع الحار عن سمة العصر العباسي وطابعه انه عصر تميز عن العصور التي سبقتة بحرية الرأي في العقيدة والأدب ، وبالإغتماس في الترف والتعيم الى أبعد الآماد .

- ٤ -

ولقد استتبع كل هذا تغيرا خطيرا في الحياة الاجتماعية في هذا العصر ، فاذا بنا أمام مجتمع جديد لم يألفه العرب في صدر الاسلام ، ولا في أيام بني أمية ، أيام كان شعارهم التبسط في معاشهم وطعامهم ولباسهم ومسكنهم ، فخرج الناس عن الفهم وعاداتهم في المجتمع الجديد ، فابتنوا القصور الشاهقة تحف بها

الحدائق ، وتجري من تحتها الأنهار ، ولبسوا الخز والديباج
والحرير ، وافتنوا فى صنوف الاطعمة والاتفاق على المطابخ ،
حتى صار لكل لون من ألوان الطعام خدم عليهم رئيس ، واستأنسوا
الجوارح للصيد والطراد ، وملئوا دجلة بالحراقات التى تشق الماء
بالجوارى والقيان ، وتعددت مجالس اللهو والشراب والطرب ،
ورفعت القباب على مجالس الخلفاء والخاصة ، وزينت جدرانها
وسقفها بصور من الذهب والفضة ، وتألق الخلفاء والندماء فى
تزيين مجالسهم بيسط الديباج وستائر الحرير المطرزة ، وافتنوا
فى أزياء المنادمة يلبسونها مضمخة بالعطر والأزاهير ، وافسحوا
فى مجالسهم للخلفاء والمجان والملهين من جميع الأمصار . وشاع
فى هذا العصر تسرى الجوارى ، وتكاثرهن بما لم يسبق له مثيل ،
وأصبحت قصور الخلفاء تمتلئ بهن من جميع الاجناس والنحل ،
فبلغ عددهن عند الرشيد ألفى جارية ، وعند المتوكل أربعة آلاف
غير القيان ، وباتوا يتهادون هؤلاء الجوارى كما يتهادون الحلى
والجواهر ، واصبح شعار العهد هذه الكلمة المأثورة : « عجت
لمن عرف الاماء كيف يقدم على الحرائر ؟ » . ولهذا كان خلفاء
هذه الدولة من بعد المهدي من أبناء السراى - فيما عدا الأمين .
فالهادى وأخوة هارون كانت أمهما رومية ، والمأمون أمه فارسية ،
والمعتصم أمه تركية ، والواثق أمه رومية ، والمتوكل أمه تركية
وهكذا ، ومما نكب به هذا العهد نتيجة اختلاط الأمم ، وشيوع

الفساد والانحلال تسرى الغلمان (١) ، والتفنن في تزيينهم وتجميلهم واستخدامهم كالجواري في قصور الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة ، حتى باتوا يحجبونهم كما يحجبون النساء ، وأصبح كبار الشعراء يشببون بهم في مجالس الشراب واللهو والغناء ، وأصبح الغزل في المذكر غرضا جديدا من أغراض الشعر في ذلك العصر .

« ولم يقتصر هذا الانحلال على الموالى (٢) ، لأن أبناء العرب - بحكم الاختلاط - قد فقدوا شخصياتهم ، وصاروا وأبناء الأمم المذكورة سواء ، ثم أقل من السواء ، وأصبحوا يحاكونهم محاكاة المغلوب للغالب ، فانغمسوا في شرورهم غير مباليين ، وتعودوا من عاداتهم ما كانوا عنه مبعدين ، ولقد ولد هذا الاندفاع الشديد في تيار الحضارة تقديسا للماديات ، اشباعا للنهم والجشع ، فأحب

(١) من أقبح اسباب التهلك في ذلك العصر تسرى الغلمان ، ونظرا لكثرة تردد الشعراء على مجالس الانس والطرب أصبحت تلك العادة أكثر شيوعا فيهم ، وبلغ من مجونهم أن يشترك بضعة رجال منهم في عشق غلام . وقد يتوسط الشاعر في المصالحة بين عاشقين لاصلاح ذات البين ، ويفعلون أقبح من ذلك في مجالسهم كما كانوا يفعلون في بيت اسماعيل القرايطسي الكوفي ، حيث كان يجتمع عنده ابو نواس وابو العتاهية ومسلم بن الوليد وحسين الخليل ، حيث يكتفون على الخلعة والشراب . . الاغانى ج ٩ - ١٩٨ ، ج ١٢ - ١٠٥ . ويقول جورجى زيدان : اذا عملت الفكرة فيما لحق بعض الخلفاء وامراء من الفساد لرايته رجعا الى من يتولى تربيتهم من الخاصة أو الشعراء . فجعفر ابن المنصور أفسده مطيع بن ابياس ، والامين أفسده حسين بن الضحاک وابو نواس (تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢) .

(٢) تاريخ الادب العربى للسباعى بيومى ج ٣ .

الناس المالُ حبا جما ، وانطلقوا وراء الحصول عليه انطلاقا أعمى لا يفرق بين حلال وحرام ، فتنوعت طرق السلب والابتزاز ، وانتشرت حيل الغش والخداع ، وأصبحت الرشوة عاملا فعلا من عوامل نيل الغرض ، واقتناء الثروات » .

يقول الدكتور الحوفي (١) عن الحياة الاجتماعية في هذا العصر « ولا شك في أن هذه الحضارة جرت معها أنواعا من الشرور والمفاسد ، فضعفت اخلاق كثير من الناس ، واشتد شره بعضهم الى المال يجمعونه من طرق الحلال وطرق الحرام ، وتنوعت وسائل الغش ، وذاعت الرشوة ، حتى ان الخلفاء كانوا يصادرون أموال الوزراء والولاة من حين الى آخر لأنهم جمعوها من الرشوة وما يشبهها » .

ولقد دفع حب المال شعراء هذا العصر الى الاسراف في المديح اسرافا تجاوزوا به حد الذوق ، وخرجوا به عن المألوف عقلا وشرعا ، وأصبح شعارهم هو التكسب بالشعر ، وجمع الثروات عن طريقه ، واتجاع كل من يرون فيه بارقة أمل تدنيه من مطاعمهم ولو كان في أقصى الأرض ، حتى عدت ثروات بعضهم بالآلاف : ذكر صاحب الأغاني (٢) : « أن سلما الخاسر خلف ثروة مقدارها خمسون ألف دينار ، ومن الدراهم ألف ألف درهم غير الضياع ، وأن مروان ابن حفصة بلغت جوائزه مرارا مائة ألف دينار ، وأن البحتري قد

(١) الجاحظ للدكتور أحمد الحوفي .

(٢) ج ١٢ .

فاض كسبه وزاد حتى كان يركب فى موكب من عبيده وغلما نه ،
ومثلهم فى هذا بقية الشعراء ، هذا غير مبذريهم الذين كانوا
يفوقونهم كسبا و ثراء ولكنهم لا يبقون على شىء ، كأبى نواس (١) »

ولقد فتح كل هذا أمام اللغة العربية : ثرا وشعرا آفاقا جديدة
لم يكن يرتادها اللسان العربى فيما سبق ، فكثرت الأغراض
وتنوعت ، وتشعبت الدواوين واستحدثت لها لغة تناسبها ،
وتطورت المعانى والأفكار والألفاظ والأساليب ، فزاد شيعوع
المعانى الدقيقة ، والأفكار الطريفة ، والاختيلة الرائعة ، وكثر
الاعتباس من الكتاب والسنة والحكم والأمثال ، وجنح الأسلوب
الى التهويل والغلو والتفخيم والمبالغة جريا على عادة الفرس ، وركت

(١) ان هذه الثروات التى تدفقت على الشعراء فى ذلك العصر تدل على ما كان
للشعر من مكانة كبيرة فى المجتمع العباسى ، حتى بلغ من شغف الناس
بالشعر أنهم نقشوه على جدران منازلهم وأديتهم ، وعلى فصوص خواتمهم ،
وكتبوه فى صدور مجالسهم ، وعلى القباب والمستنظرات والابواب ، وطرزوه على
الستائر والطنافس والكلل والأسرة والوسائد والمرافق والمقاعد ، وعلى ألقاني
والانداح والكاسات والارطال والجامات وسائر آنية الفضة والذهب والصينى ،
ونقشوه على العيdan والمضارب والسرنايات والبطول والمعازف والدقوف ،
وزينوا به ألباب فطرزوه على ذبيل الأقمصة والأعلام ، وطرز الإردية والأكمام ،
وعلى الصنائب ومشاد الطرر والزنانير والتكك والمناديل والمداب والمراوح ،
حتى النعال والخفاف ، وزينوا به ظاهر أبدانهم فكتبوه بالحناء على الجبين
والخد والانداد والراح ، منقوشا أو مطرزا أو مكتوبا أو منسوجا ... (تاريخ
توجهت رأيت الشعر منقوشا أو مطرزا أو مكتوبا أو منسوجا ...) (تاريخ
آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٢ - ٦٠) .

الألفاظ وسهلت دون اسفاف ، وتأثق الكتاب والشعراء فى صوغها
والبعد بها عن كل مهجور ، وغزت بعض الكلمات الفارسية
السنة الكتاب والشعراء فاستخدموها فى العديد من أغراضهم ،
وظهرت أوزان جديدة لم تكن مألوفة من قبل فى الشعر العربى :
كالملتضب والمضارع والمتدارك والممتد ، فهذا شاعر ينظم نثاته
فى وزن من هذه الأوزان وهو الممتد فيناجى هواه ويقول :

قد شـجـانى حـبـبـى واعتـرـانى اـدـكـار
لـيـتـه اذ شـجـانى ما شـجـتـى الـديـار

ويترنم مسلم بن الوليد بهذا الوزن الجديد حين يقول :

يأيهـا المـعمـود قد شـفـك الصـدود
فأنت مـسـتـهـام حالفك السـهـود

وهى قصيدة طويلة يرجع إليها فى ديوانه .

وجددوا فى القافية : فاستحدثوا النوعين المعروفين باسم
المزدوج والمسط ، ويتألف الأول من شطرين على قافية ثم من
شطرين آخرين وهكذا ، ويتألف الثانى من بيت مصرع ، تليه أربعة
اقسام أخرى على غير قافيته ، بل ذهب بعض المؤرخين (١) الى أن
المواليا - وهى من فنون الشعر الشعبى - بدأت فى هذا العصر

(١) من مؤرخى الادب العربى من يرى هذا الراى كالدكتور شوقى ضيف فى كتابه
الفن ومذاهبه فى الشعر العربى .

الذى اشتهر بالتجديد والابتداع والخلق ، وحملوا على الأساليب القديمة فى الشعر ، ونددوا بوصف الطلول والدمن ، ودعوا الى التحرر من القيود والتقاليد .

— ٥ —

هذه هى ملامح العصر الذى مهد لظهور محمد بن عبد الملك الزيات أديبا فكاتبا فشاعرا فوزيرا ، والذى أظله بظله حتى شب عن الطوق ، واتصل بالحياة من حوله ، فنهل من مواردها ، وارتوى من معينها ، وعاش فى غمارها ، ينتقل كالطائر الغرد من فن الى فن ، ويمضى من دوحة الى دوحة ، ويدور حول الأزهار المؤتلفة كالفراشة الطروب ، ترشف من كل رحيق معسول ، وترف بجناحيها بين مختلف الخمائل الياقة ، وتهفو الى كل زهرة ناضرة !.

لقد بدأ شبابه يتفتح فى عصر الرشيد ، فنعم بهذا العصر الذهبى عن ادراك ووعى ، وراح ذهنه الذكى ، وعقله المتوقد يكشفان له عن مستقبله الزاهر فى هذه الدنيا العريضة فى بلاط الخلفاء ، فأخذ يتطلع الى المجد ، ويندفع اليه فى حماس قوى — كأنما ينطق من اهابه — وجاس خلال بغداد وهى تعج بكل غريب وتموج بالعلماء والفقهاء والفلاسفة والكتاب والشعراء والخلفاء والماجين ، ثم وهى تضطرب بكل هذه الثقافات التى تفجرت فوق أرضها ، لينساب منها فيض من الثقافات الجديدة ، والأفكار المولدة ، والاتجاهات الحديثة ، فى كل نواحي المعرفة ، واستطاع

ابن الزيات بشراء أبيه وجاهه وماله ، أن يكشف الستار عن كل
مفاتيح بغداد، وأن يزيح النقاب عن وجهيها الجاد والعاث ، فأخذ من
نعيم الحياة بنصيب ، ومن جدها بنصيب ، حتى اذا استوفى حظه
من كليهما بدأت تواتيه الشهرة فيما تخطه يراعتة ، أو يجري به
لسانه من قريض ، واذا هو يحلق مع كبار الشعراء والكتاب في
مساري خيالاتهم ، ومطارح أهوائهم ، وآفاق تفكيرهم ، ثم يزاحمهم
بمنكب عريض ضخيم في دنيا خواطرهم ، كما زاحم السياسيين
في مناصب الحكم ، فاذا به يزحمهم على منصب الوزارة ، ويتربع
على عرشها طوال حكم المعصم والوائق وأوائل حكم المتوكل ،
مما لم يسبقه الى مثله كاتب أو وزير .. حتى كانت نهايته المحزنة!!

الفصل الثاني مولده ونشأته

كان من الطبيعي أن تتأثر نشأة ابن الزيات بروح ذلك العصر الذي أبنا ملامحه ، فتنعكس على حياته ، وتلمح فيها انطباعات عصره قوية واضحة . فلو أن الأمور سارت في مجراها الطبيعي دون أن يتأثر ابن الزيات بما كان عليه ذلك العصر ، أو لو أنه ظهر في عصر آخر لاتسوده هذه الملامح القوية التي طبعت العصر العباسي بطابعها لما خلدته كتب التاريخ أدبيا ، فشاعرا ، فوزيرا ، ولنهج منهج آبائه وأجداده في مزاوله التجارة ، ولضاع في زحمة الحياة كما ضاع كثير من التجار في عصره ، مكتفيا بالاشراف على تجارة أبيه في الكرخ ، أو بجلب الزيت من مواضعه ليصرفه في بغداد على تجارها ، كما كان يفعل أبوه عبد الملك وجده أبان .

ولكن ماذا حدث ؟ لقد رأيناه يدافع أباه مدافعة شديدة حين أرادته على ان يسلك مسلك آبائه وأجداده في احتراف التجارة ، وأن يتفرغ لها كما تفرغوا ، فلا يشغله عنها شاغل من الجبرى وراء الكتاب والأدباء والعلماء ، أو يصرفه عنها صارف من شغف بالشعر والأدب . وقف محمد بن عبد الملك الزيات صلبا عنيذا

أمام والده حين أنكر عليه ترده على أرباب الكتابة فى بلاط المأمون
فمالأنت قناته ، ولا ضعفت عزيمته ، ولا استجاب لرجاء أبيه ، وذلك
لأن تيار العصر كان جارفا ، فاكسح أمامه هذه النصائح التى
أسداها اليه أبوه ، وبغض اليه حرفة التجارة ، وحب اليه احترام
الأدب والكتابة والشعر ، استجابة لنداء عصره .

ويروى لنا صاحب الاغانى (١) فيما يزويه ماجرى بين ابن
الزيات وابيه من حوار فى هذا الشأن وكيف قامت الحجة لابن
الزيات على أبيه ، فتركه وشأنه ، يشق طريقه فى عالم الكتابة
والأدب ، فيقول : « وكان أبوه - يقصد محمد بن عبد الملك
الزيات - تاجرا من تجار الكرخ المياسير ، فكان يحثه على التجارة
وملازمتها ، فيأبى الا الكتابة وطلبها ، وقصد المعالى ، حتى بلغ
منها أن وزر ثلاث دفعات - وهو أول من تولى ذلك - قال حدثنى
عمر بن محمد بن عبد الملك الزيات ، قال : كان جدى موسرا من
تجار الكرخ ، وكان يريد من أبى أن يتعلق بالتجارة ، ويتشاغل
بها ، فيمتنع من ذلك ، ويلزم الأدب وطلبه ، ويخاطب الكتاب ،
ويلزم الدواوين ، فقال له ذات يوم : والله ما أرى ما أنت ملازمه
ينفعك ، وليضرنك ، لأنك تدع عاجل المنفعة وما أنت فيه مكفى ،
ولك ولأبيك فيه مال وجاه ، وتطلب الآجل الذى لا تدرى كيف
تكون فيه . فقال : والله لتعلمن أينما ينتفع بما هو فيه ، أنا أم أنت ؟ .

(١) الاغانى : ج - ٢٠ - ٤٦ طبعة الساسى .

ثم شخص الى الحسن بن سهل بفهم الصلح (١) ، فامتدحه بقصيدته
التي أولها :

كانها حين تنئى خطوها أخنس موشى الشوى يرعى القلل
فأعطاه الحسن عشرة آلاف درهم ، فعاد الى أبيه ، فقال له أبوه :
لا ألوئك بعدها على ما أنت فيه .

ولم يكتف ابن الزيات بهذه الآلاف بل تطلع الى ماهو أبقي
من المال وأخلد ، فيحدثنا ميمون بن هارون : (٢) أن ابن الزيات
لما مدح الحسن بن سهل ووصله بعشرة آلاف درهم طلب أن
ينشده قصيدته التي يقول فيها :

لم امتدحك رجاء المال أطلبه لكن لتلبسنى التحجيل والغررا
وليس ذلك الا أننى رجيل لا أقرب الوردحتى أعرف الصدرا

بهذا الاستهلال البارع بدأ محمد بن عبد الملك الزيات حياته
الأدبية، بدأها بداية موفقة ، استطاع أن ينتزع بها من أبيه موافقته
بل استطاع أن ينتزع بها اعجابه ، فأعفاه من شئون تجارته ، وبعد
به عن ميدانها ليتفرغ لأدبه ، رغم ما كانت تدره التجارة فى ذلك
العصر من أرباح تفوق الحصر ، وتكفل لصاحبها رغد العيش ونعيم

(١) وردت هذه القصيدة فى ديوان ابن الزيات فى مدح الفضل بن سهل وبعه فى

ذلك صاحب كتاب امراء البيان ج ١ .

(٢) الاغانى ج ٢٠ .

الحياة . وهكذا انتصر ابن الزيات فى هذه المعركة ، لأن روح العصر كانت تشده الى هذا الاتجاه ، ولأن المكانة المرموقة التى كان ينعم بها الأدباء والشعراء والعلماء فى بلاط الخلفاء قد بهرت أبصاره ، فخاض غمار هذه الحياة الأدبية ، واقتحم دروبها ، وأخذ يصعد درجات المجد الأدبى بعيداً عن حرفة الآباء والأجداد .

وابن الزيات نشأ فى بيت واسع الثراء ، عريض الجاه ، فقد أجمعت المصادر على أن أباه كان من وجوه تجار الكرخ ببغداد ، ومن مياسيرهم ، وانه كان يتولى تزويد بلاط المأمون بما يلزمه من الفساطيط والجمازات ، وبما تحتاجه مطابخ قصره من أشياء — فهو بلغة عصرنا كان متعهد قصور الخلافة يمدّها بكل ما يلزمها — وناهيك بما كان يلزم قصور الخلفاء فى ذلك العهد ، فكان عبد الملك لهذا كله مرموقاً بين تجار بغداد ، معدوداً من سرائهم .

وقد ولد محمد فى قصر أبيه بالكرخ ، وهو كرخ بغداد الذى أمر المنصور بإنشائه ، لتنتقل اليه كل أنواع التجارة ، فنما على طول الزمن ، حتى أصبح مركز التجارة فى بغداد ، وموطن كبار التجار ، ولانشاء هذا الكرخ قصة طريفة ، أوردها ياقوت فى معجّنه حيث يقول : « لما ابتنى المنصور مدينة بغداد أمر أن تجعل الأسواق فى طاقات المدينة ، ازاء كل باب سوق ، فلم يزل على ذلك مدة حتى قدم عليه بطريق من بطارقة الروم رسولاً من عند الملك ،

فأمر المنصور الربيع أن يطوف به المدينة حتى ينظر إليها ، ويتأملها ويرى سورها وأبوابها ، وما حولها من العمارة ، ويصعده السور حتى يمشى من أوله الى آخره ، ويريه قباب الأبواب والطاقات وجميع ذلك . ففعل الربيع ما أمره به ، فلما رجع الى المنصور قال له : كيف رأيت مدينتي ؟ قال : رأيت بناء حسنا ومدينة حصينة الا أن أعداءك فيها معك ، قال له : من هم ؟ قال : السوق ، يوافي الجاسوس من جميع الأطراف ، فيدخل الجاسوس بعة التجار والتجار هم يرد الآفاق . فيتجسس الأخبار ، ويعرف ما يريد ، وينصرف من غير أن يعلم به أحد ، فسكت المنصور . فلما انصرف البطريق أمر باخراج السوق من المدينة ، وتقدم الى ابراهيم ابن حبش الكوفي وخراش بن المسيب اليماني بذلك ، وأمرهما أن يبيننا ما بين الصراة ونهر عيسى سوقا ، وأن يجعلاهما صفوفًا ، ورتب كل صف في موضعه ، وقال : اجعلا سوق القصاين في آخر الأسواق ، فانهم سفهاء ، وفي أيديهم الحديد القاطع ، ثم أمر بأن يبنى لهم مسجد يجتمعون فيه يوم الجمعة ولا يدخلون المدينة ، ثم اتسعوا بعد ذلك في البناء والأسواق .

في هذا الكرخ ولد ابن الزيات ، وفي قصر والده تفتحت عيناه على الحياة لأول مرة ، واستهلها صارخا كما يستهلها كل مولود ، فتلاشت صرخات الوليد بين معالم السرور بمقدمه ، وذابت بين ضحكات الفرح والابتهاج باستقباله ، وأمضى محمد في قصر أبيه طفولة سعيدة : طفولة مدللة في أحضان الثراء

والنعمة ، محسوبة بكل أنواع الرعاية والعطف ، تجد كل ما تشتهى ، وفوق ما تشتهى ؛ لأنها طفولة فوق مستوى الطفولات على عهد هذه ثراء وجاها وحسبا .

ونحن - مع اغفال المؤرخين الحديث عن طفولته - نرجح أن عبد الملك كان يرعى ابنه فى هذه الفترة رعاية الوالد الحريص على مصلحة ولده ، وأن عينه لم تغفل عن تأديبه وتهذيبه ؛ ليؤهله لمهنة التجارة ، وأن ثراءه الواسع العريض مكّنه من هذه الرعاية ، فاستقدم له المؤدبين والمعلمين ، يعلمونه الخط والقراءة والحساب فى البيت ، على سنة الخلفاء والكبراء فى تربية أولادهم ، دون أن يجشم ابنه مثونة التردد على هؤلاء المعلمين فى منازلهم أو مساجدهم ، حتى إذا شب عن الطوق ، وأتقن القراءة والكتابة ، انطلق على سجيته يرتاد دواوين الحكومة ، ويلازم كبار الكتاب ، ويشدو بالشعر ، وترك ما كان أبوه يؤهله له من ممارسة التجارة ، وحنق فنونها .

ولقد أغفلت مراجع التاريخ السنة التى ولد فيها محمد ابن عبد الملك الزيأت . ولكننا نرجح أنه ولد فى سنة ١٧٣ هجرية (٧٨٩) ميلادية . أى بعد خلافة الرشيد بثلاث سنين ، ووجه الترجيح أن ابن الزيأت تولى الوزارة لأول مرة للخليفة المعتصم سنة ٢٢٠ هجرية ، وكانت سنه اذ ذاك سيعا وأربعين سنة على ما ورد فى بعض المصادر ، فيكون مولده - ان صح هذا القول -

فى عام ١٧٣ هجرية ، وعاش حتى نكب فى خلافة المتوكل عام ٢٣٣ هجرية (٨٤٧) ميلادية . فيكون قد قطع مرحلة الحياة فى ستين عاما هجريا ، أو ثمانية وخمسين عاما بالحساب الميلادى .

أما اسمه بالكامل فهو محمد بن عبد الملك بن أبان بن أبى حمزة الزيات ، ويكنى أبا جعفر ، وغلب عليه لقب الزيات لأن جده أبان كان يتجر فى الزيت ، فيجلبه من مواضعه الى عاصمة الخلافة ، فظل هذا اللقب ملازما له ولذريته من بعده ، كما لازم أباه وجده . وكان جده أبان هذا من أهل جبل ، من قرية بها يقال لها (١) دسكرة من النهروان الأسفل ، وقد استطاع أبان أن يؤسس تجارة كبيرة فى الزيت وغيره من السلع ، وأن يهجر قريته دسكرة الى بغداد ، ليكون قريبا من مركز تصريف تجارتها وورث عنه شئون هذه التجارة ابنه عبد الملك ، الذى اتسعت أعماله التجارية فى الكرخ ، وأصبحت له - كما سبق - علاقات تجارية بقصور الخلفاء والأمراء . وقد كان يسعده أن يتولى شئون هذه التجارة من بعده ولده محمد ، لولا أن مناصب القصور قد جذبت اليها محمدا بيريقتها ولألائها ، فأثر أن يتحصن لها بالعلم ، ويتسلح بالأدب ، ويبرأ من التجارة . ولذلك نرى محمدا - وهو فى شرخ الشباب - يشغف بمصاحبة العلماء ، وملابسة أرباب الكتابة فى أعظم دواوين الدولة فى عهد المأمون ؛

(١) وفيات الاميان: ج ٤ . الاغانى ج : ١٠ . ومعجم الشعراء للمريزبانى .

كعمرو بن مسعدة ، وأحمد بن يوسف ، وسهل بن هارون ، والفتح بن خاقان ، وطاهر بن الحسين ، والجاحظ ، وأضرابهم . وأصبح الديوان مدرسته التي يختلف إليها بعد أن تعلم القراءة والكتابة . وعرف في هذا الديوان - كما يقول صاحب كتاب امرأ البيان - « معاملات الحكومة ، وأصولها في سياسة الملك ، وكتب كتباً ، وشاهد الكتاب يكتبون ، وأرهف حسه ، وهذب نفسه ، منذ ألقى في روعه أن يكون ذات يوم صاحب شأن في الدولة » . وكما صاحب كتاب عصره وأخذ عنهم صاحب أيضاً علماءه في اللغة والأدب والرواية ، كأبي عبيدة ، والأصمعي ، وأبي زيد الأنصاري ، والكسائي ، والفراء ، والخليل ، وقطرب ، حتى أصبح حجة في اللغة يحتج برأيه ، ويأخذ به علماء اللغة « ذكر ميمون (١) ابن هارون الكاتب : أن أبا عثمان المازني لما قدم بغداد أيام المعتصم ، كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه في علم النحو ، فإذا اختلفوا فيما يقع فيه شك ، يقول لهم المازني : ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب - يعني محمد بن عبد الملك - أسألوه ، واعرفوا جوابه ، فيفعلون ، فيصدر الجواب من قبله بالصواب الذي يرتضيه المازني ، ويفقههم عليه » .

ومثل ابن الزيات في ذكائه الحاد ، وحسه المرهف ، لا يغيب عن خاطره ما وصل إليه الكتاب من رفيع المناصب ، وما ألفت به اليهم الكتابة من أزمة الأمور ، ومقاليد الحكم . فلقد « وصل

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي . وفيات الاعيان ج : ٤

الكتابة (١) الى أرفع المنازل بعد الخلافة ، وألقيت اليهم الأعنة في سياسة الدولة ، وأحس الخلفاء بشدة الحاجة اليهم ، فاعتصموا بهم في النوازل ، وتركوهم يتصرفون عنهم في الوعد والوعيد ، والنقض والابرام ، ونظر الناس الى هذه المكانة نظرة التقديس والاجلال ، فصاروا يسمعون من الكتاب من يقول :

ولى فقر تضحى الملوك فقيرة
اليها لدى أحداثها حين تطرق

ولعظم مهمة الكتاب عنوا بالتبحر في الأدب ، والتفقه في كل ما يتصل به من علم ، حتى يكونوا أكفاء لما يندبون له ، وحتى يقعوا من الخلفاء والملوك الموقع المرضي عنه .

وابن الزيات رجل طموح ، لم تلهه مكاسب التجارة ، وعاجل أرباحها عن بريق المناصب ، فعمل على أن ينشئ نفسه هذه النشأة التي تؤهله لأن يكون كاتباً من الكتاب الذين تزدان بهم مناصب الحكم ، وتحرص عليهم الخلافة . ومع تردده على الدواوين منذ أيام المأمون ، وملازمته لكبار الكتاب ، يأخذ عنهم ، ويكتب لهم ما يريدون ، فقد استطاع أن يظفر في قصر الخلافة أيام المعتصم بإحدى وظائف القصر ، وإن كانت لا تمت الى الكتابة بسبب ، وإنما اعتبرها محمد بن الزيات سلماً الى ما يبغيه من أرقى المناصب . يؤيد هذا ما أورده المربزباني في

(١) تاريخ الأدب العربي ج : ٢ .

معجم الشعراء ، اذ يقول : « ان محمدا لم يكن له حظ فى الكتابة (كذا) وكان له فى أيام المعتصم تفقد الدار ، والاشراف على المطبخ » ومثله ما ذكره الطبرى (١) فى سياق قصة تولى محمد الوزارة ، مما سيرد فى موضعه ، وهو قوله « كان محمد ابن عبد الملك الزيات يتولى للمعتصم ما كان أبوه يتولاه للمأمون من عمل المشمش والفساطيط وآلة الجمازات ، ويكتب على ذلك : مما جرى على يدى محمد بن عبد الملك . وكان يلبس اذا حضر الدار دراعة سوداء ، وسيفا بحمائل ، فقال له الفضل بن مروان : انما أنت تاجر . فمالك وللسواد والسيف . فترك محمد ذلك »

ويبدو من سياق كلام الطبرى أن ابن الزيات كانت تغلب عليه فى بلاط المعتصم صفة التاجر الذى يورد الى القصر ما يلزمه من الفساطيط والمشمش والجمازات ، ولذلك استنكر عليه الفضل ابن مروان أن يلبس الدراعة ، وأن يتمنطق بسيف ذى حمائل ، بينما يدل كلام المرزبانى على أنه كان يشغل فى أيام المعتصم احدى وظائف البلاط ، وهى تفقد الدار والاشراف على المطبخ (٢) . وأيا كان عمله فى بلاط المعتصم فالذى نحرص على اثباته دون شك ، هو أن ابن الزيات قد وصل الى قصر الخليفة ، وأنه شغل فيه

(١) تاريخ الطبرى ج ١٠ .

(٢) يقول صاحب امراء البیان : ان ابن الزيات كان يتولى فى بدء امره قهزمة الدار . والقهرمان كلمة فارسية معناها المسيطر الحفيظ على ما تحت يده ، ويشرف على مطبخ الخليفة .

مركزاً من المراكز المرموقة ، وأنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من آماله العريضة . وماهى الا أيام معدودة حتى كان ابن الزيات من جملة الكتاب فى بلاط الخليفة ، يؤيد ذلك ما أورده البغدادى فى خزانه (١) الأدب من أنه « كان فى أول أمره - قبل توليه الوزارة - من جملة الكتاب فى بلاط المعتصم »

وما ذكره ابن خلكان فى قصة تولية الوزارة بعد أحمد ابن عمار من أنه كان من جملة الكتاب .

والذى نرجحه - للتوفيق بين هذه الآراء المختلفة - أن ابن الزيات كان فى شبابه قريباً من قصر الخلافة، يشارك كبار الكتاب فى أعمال الدواوين ، ويشرف فى نفس الوقت على بعض وظائف القصر الداخلية ، وهذا الاشراف هو الذى مكّنه من مصاحبة هؤلاء الكتاب والاختلاط بهم ، فأخذ يعد نفسه فى هذه الفترة لمهمة أسمى ، ومنزلة أكبر ، ودفعته حياة القصور فى مجراها الذى خطته يد القدر له ، فشق طريقه فيها ، توّازره نعمة موفورة متوارثة ، ويؤيده حسب ركين مكين ، ويزكيه ذهن متوقد ، وحس مرهف ، وذكاء حاد ، واستطاع بكل هذه الأسلحة أن ينهل من موارد المعرفة التى فاضت بها بغداد فى عصره ، وأن يستمع الى كبار العلماء فى مختلف فنون الثقافة ، فيشبع نهمه الى العلم ، ويروى ظمأه الى كل جديد من المعرفة ، وأصبح حجة فى اللغة والأدب ، يركن الى رأيه أمثال المازنى كما تقدم ، ويعتد برأيه فى

مجالات الأدب ، وبات كاتباً مرموقاً بين كتاب الدواوين ، وأخذ في هذه الحقبة يعالج قرض الشعر ، ويشدو به في كثير من المناسبات ، ودار مع كبار شعراء عصره في الفلك الذي يدورون فيه ، وتناول كل الأغراض التي تناولوها ، وغنى كما يتغنون بالخير والشراب ، والقصيف والطرب ، والهجر والوصال ، والحب والحنين ، والرضا والعتاب ، والمدح والهجاء ، لا عن محاكاة وتقليد ، بل عن ممارسة حقيقية لكل هذه العواطف ، لأنه ذاب في مجتمعه ، وعاش فيه بكل أحاسيسه ، وأقبل على دنياه أقبال المفتون بكل ما فيها من جمال وسحر ، وثقافة وعلم ، تستقبله مجالس اللهو والشراب ، كما تفتح ذراعيها له مجالس الثقافة والجدة .

وديوان ابن الزيات مرآة صادقة لهذه الفترة التي عاشها في بغداد قبل أن يلي الوزارة ، فتلمس فيه صوراً من حياته المختلفة ، وتشهد ألواناً من هذه العواطف التي كانت تزخر بها نفسه ، فيفيض بها لسانه شعراً يسجل فيه هذه الخطرات . فشعره في الغزل والنسيب يدل دلالة قوية على مشاركته لعصره ، واستمتاعه بكل مباهجه ، وشدة حبه (١) للمرأة ، وهيامه بها ، بل خضع لمؤثرات العصر حتى في الغزل بالمذكر ، وكذلك شعره في وصف

(١) يبدو هذا واضحاً من قوله :

يقال فاقبله في الفـ	ان الفـ
بلمحة العين الحـ	ينلن حاجاتهم عنـ

الخير ومجالس الشراب يكاد يبلغ من الجودة والصدق منزلة
شعر كبار الشعراء فى عصره . ونحن نورد فيما يلى أمثلة من
شعره تدل على أنه لم يكن يحاكي فيما يقول غيره أو يقلده ، وإنما
هو يصور حياته أدق تصوير وأبلغه .

فمن غزله :

إذا الناس كانوا فى الأحاديث والمنى
خلوت بنفسى فيك من بينهم وحدى
أحيد بنفسى عنك عمدا وفى الحشا
إليك عيون ما برحن عن القصد
فيا من بكفيه حياتى وميتتى
ومن ليس لى منه وآن مت من بد
أرحنى من نفسى بموت معجل
فديتك أو نائى القواد من الجهد



تجلدت فى حبى وما بى قوة
ولى زفرات شاهدات على عشقى
والديوان مملوء بكثير من هذا الغزل ، بعضه عف ، وبعضه
تكشفت عنه الحجب والأستار فبدا غزلا عاريا مكشوفاً .
ومن غزله الذى بلغ من الجودة حدا يضع ابن الزيات فى
مصاف كبار شعراء الغزل قوله :

ولو أن ما ألقى من الوجد ساعة
بأجبال رضوى هدمتها صخورها
ولو أن ما ألقى من الوجد ساعة
يركنى ثبير ما أقام ثبيرها
ولو أننى أدعى لدى الموت باسمها
لعاد لنفسي - باسم ربي - نشورها
واني لآتي الشيء من غير علمها
فيخبرها عنى يذاك ضميرها
وقد زعمت أنى سمحت لغيرها
بوصل ، ولا والبدن تدمى نحورها

وهذا كله دليل قاطع على أن ابن الزيات قد استمتع بشبابه،
وبلغ به ما بلغه شباب عصره من عيكوف على اللذات ، وانهاز
للمتع ، وأنه ترك لقلبه العنان يتعلق بكل حسناء ، ويهفو الى كل
ذات سوار تعترض طريقه ، وأنه كان لا يدارى هواه ، ولا يقتصد
فى نزواته . ذكر الخطيب البغدادي فى تاريخ بغداد أن ابن الزيات
كان يعشق جارية من جوارى القيان ، فبيعت من رجل من أهل
خراسان ، فأخرجها ، فذهل عقل ابن الزيات حتى غشى عليه ، ولما
أفاق أنشأ يقول :

يا طول ساعات ليل العاشق الدنف
وطول رعيته للنجم فى السدف

ماذا توارى ثيابى من أخى حرق
كأنما الجسم منه دقة الألف
ما قال يا أسفا يعقوب من كمد
الا لطول الذى لاقى من الأسف
من سره أن يرى ميت الهوى دنفا
فليسستدل على الزيات وليقف

ولم يفت ابن الزيات أن يسهم فى هذه البدعة الجديدة ، التى
طغت على أكثر شعراء عصره ، فراح يتغنى بالغزل فى المذكر ،
ويشيب بالعلمان .

أما خمرياته التى وردت فى شعره فتدل على مشاركة ابن
الزيات فى مجالس الشراب فى عصره ، وقد بلغ أحيانا من دقة
الوصف مبلغ النواسى الذى أدركه وتأثر به فى هذا النوع من
الشعر ، فأنت ترى شبها قويا بين شعر ابى نواس (١) وشعر ابن
الزيات فى وصف الخمر ، والتغنى بمجالسها ، فاذا قال النواسى :
والراح طيبة وليس تمامها الا بطيب خلألق الجلاس
واذا جلست الى المدام وشربها فاجعل حديثك كله فى الكاس

قال ابن الزيات فى مثل هذا المعنى :

مقيا لمجلسنا الذى جمعت به طرف الحديث وطاعة الجلاس

(١) توفى أبو نواس عام ١٩٨ هجرية وابن الزيات فى الخامسة والعشرين .

وإذا قال النواس :

كرخية قد عتقت حقبة
فلم يكدر يدرك خمارها
دارت فأحيت غير مدمومة
والخمر قد يشربها معشر
حتى مضى أكثر أجزاءها
منها سوى آخر حوبائها
نفوس حراها وأنصائها
ليسوا إذا عدوا بأكفائها

قال ابن الزيات فيما يشبهه :

وصهباء كرخية عتقت
فلم يبق منها سوى لونها
كان خيالاً لدى كأسها
تري بالتوهم لا بالعيان
فطال بها في الدنان الطيل
ونكهة ريح بها لم تزل
يدق عن الطرف ما لم يجل
ن وتشرب بالقول لا بالعمل
فرحت أجر ثياب الثمل
كفاني من ذوقها شمه

وابن الزيات في التغنى بالخمر والشراب ، لا يقنع بالقول ،
والتأثر بشعراء عصره ، وإنما هو يعيش هذه الحياة العابثة حقاً ،
ويستمتع بما في بغداد من مباحج العيش ، ويستوفي نصيبه من
متع الحياة ، إلى جوار حياته العقلية الخصبة في مجالس الكتاب
والعلماء ورجال الأدب واللغة .

ونستطيع كلما أوغلنا في تتبع شعر ابن الزيات في ديوانه أن
نقف على دقائق حياته في هذه الحقبة ، وأن نلم بشيء من أخلاقه
وطبائعه ، فلم يكن ابن الزيات كبقية الكتاب حين كان يتردد على
دواوين الخلفاء ، بل كان يحب أن يمتاز عليهم ، وينفرد من دونهم

بملبسه ومركبه ، فكان يلبس - كما قال الطبري - دراعة سوداء ،
وسيفاً له حمائل ، وهو يتولى أعمال المطبخ في قصر الخلافة الى
جانب عمله في الكتابة ، حتى لفت اليه انظار الوزير الفضل
ابن مروان ، فقال له - كما ذكرنا - انما أنت تاجر ، فمالك
وللسواد والسيف ؟ وكان يركب في ذهابه الى القصر وعودته منه
برذونا أشهب ، يروي صاحب الأغاني (١) أنه لم ير مثله فراهة
وحسناً ، فسعى به محمد بن خالد الى المعتصم ، ووصف له
فراسته ، فبعث المعتصم اليه ، وأخذ منه ، ولم يستطع ابن
الزيات الا الاستسلام لمشية المعتصم ، والنزول عن برذونه ،
ولكنه لم يستطع أن يمنع شيطان شعره من البكاء على هذا
البرذون ، فأتبعه بتلك القصيدة التي يقول فيها :

كيف العزاء وقد مضى لسبيله

عنا فودعنا الأحم الأشهب

دب الوشاة فأبعدوك وربما

بعد الفتى وهو الأحب الأقرب

وشىء آخر نراه في شعر ابن الزيات يدل على ما كان يتمتع
به من روح (٢) ساخرة ، وجب للدعابة والنيل من الأصدقاء ،

(١) الأغاني : ج ٢٠ .

(٢) ذهب الى أحد القينين فوجد على بابه برذونا وعلم انه باع القينة واشتراه
بثمنها فقال :

قينة كانت تقنى	مستخرت برذون ادهم
هجت بالسبابط يوما	فاذا القينة تلجم

حتى عرف في هذه الفترة بخفة الروح بين أصدقائه ، عكس ما عرف عنه أيام توليه الوزارة من صرامة وشدة ، فهو في شعره يداعب كثيرا من أصدقائه ، ويغمزهم غمزا يثير الضحك والاعجاب ، فتراه يداعب أنف صديقه عيسى بن زئب ، ويصفه وصفا ساخرا يذكرنا بأسلوب ابن الرومي في هجائه ، وكان أنف هذا الصديق يملأ وجهه ، ويشغل حيزا كبيرا من مساحته ، فلم يسلم من مداعبة ابن الزيات له ، وتلمس في هذه المداعبة خيال الشاعر الخصب الذي أضفى على شعره ألوانا من السخرية القاتلة التي تدفع الى الضحك من عيسى بن زئب ، ومن أنف عيسى بن زئب !! اسمع اليه حين يقول :

يا أنف عيسى جزاك الله سالحة
وزادك الله اشراقا ومتسما
حصن حصين وعز لو تناوله
كسرى الملوك أنو شروان لامتنعا
تركت عيسى فما عندي مخاطبة
له وخاطبت أنفا طال وارتفعنا
رأيت أنفا ولم أعلم بصاحبه
فقلت : من صاحب الأنف الذي طلعا
قالوا فتى غاب فيه ، قلت واعجبي
ما ان رأى مثل ذا راء ولا سمعا

يا ويلكم أخرجوه ، قال ناطقهم
هيهات ما ان نرى فى نيله طمعا

ومن هذه المداعبات ما قاله فى على بن عثمان :

ما جلا طيء بأمنع من زاد على زميل صقلاب
ذاك امرؤ ان أردت كسرتة جادت لنا عينه بتسكاب

وقد يقسو أحيانا على بعض من كان يصادقهم ، ويمحضهم
إخلاصه ووده ، فيقلب عتابه لهم الى هجاء مقذع كقوله :

لقد أخطأت فى حبي وفى تكرمة السكلب
فما أعجب من فعلى وما أعظم من ذنبى
دعائى الجهل أن أقرر ت للخسيز بالحب

ومع ذلك فقد كان وفيا لأصدقائه ، حفيا بهم ، وتلمس ذلك
فى قوله لبعض أصدقائه حين علم بعلته :

أعزز على بأن تكون عليلا أو أن يكون بك السقام نزيلا
ووددت أنى مالك لسلامتى فأعيركنها بكرة وأصيلا
فتكون تسعى سالما بسلامتى وأكون مما قد عراك بديلا
وأنا أخ لك أشتكى ماتشتكى وكذا الخليل اذا أجل خيلا

على أنه يعود الى نفسه أحيانا وينحى عليها باللائمة لأنها
تستمسك بمودة الأصدقاء ، وتتعلق بأسبابهم على حين لا يرى
منهم الا الهجر وعدم الوفاء ، وترى ذلك واضحا فى عتابه لأحد
أصدقائه اذ يقول :

يا قلب ويحك لم ترد بمسودة من لا يريدك
 يزهو ويفرق في القلا وإذا مرضت فلا يعودك
 حتى متى ، وإلى متى غي الفؤاد له يقودك
 أمسى لغسبك جوده وله - وما يهواك - جودك
 وتحس المرارة في قوله :

ما أعجب الشيء ترجوه فتحرمه
 قد كنت أحسب أنى قد ملأت يدى
 مالى اذا غبت لم أذكر بصالحه
 وان مرضت فطال السقم لم أعد

وكل هذا راجع الى ما تفيض به نفس الشاعر من احساس
 مرهف ، وشعور رقيق ، وإلى ما يعمر قلبه من وفاء وحب . وانك
 لتراه يذيب هذا القلب فى زفرائه التى أطلقها حين اخترم الموت
 جاريته أم عمر ، وخلفت له ابنها صغيرا لم يتجاوز الحلم ، فيبكيها
 بهذا الشعر الدامى ... :

ألا (١) من رأى الطفل المفارق أمه
 بعيد الكرى عيناه تنسكبان
 رأى كل أم وابنها غير أمه
 بيتان تحت الليل يتجيان

(١) وردت القصيدة كاملة بالديوان .

وبات وحيدا فى الفراش تجيبه
 بلابل قلب دائم الخفقان
 فلا تلجئاني ان بكيت فانما
 أداوى بهذا الدمع ما تريان

كل هذه النفثات الحزينة الصادقة تدل على رقة قلب الشاعر،
 وشدة تأثره بالنازلات ، وعميق احساسه بالنواب .
 على أن هذه الرقة كان يمازجها اعتداد بالنفس ، واعتزاز
 بالشخصية ، وسمو بالكرامة ، يستين ذلك مما أسلفناه من
 اهتمامه بملبسه ومركبه ، ومن شعره الذى يفصح عن هذه
 الخلال ، ويكشف عن الاعتداد بالنفس ، وسعة الحيلة ، والحزم
 فى الأمور ، فهو يقول :

فقد أختلس (١) الطعنة بين الرأى والـسوهم
 وأغشى القوم بالقوم وأغشى الدهم بالدهم
 وأحمىهم وان غبت حموا أنفسهم باسمى
 وقوله :

راجع الحزم واستفد من خصا
 ل العجز يوما ان زلت القدمان
 لم يسىء فى الصموت من ذكر الز
 لة فى القول عند نطق اللسان

(١) اعتمدنا على النص الوارد فى مجمع الشعراء للمروزيانى .

لا يكن حصنك التمسك بهم
إذا خفت صولة الحـدثان

واسع في الحيلة التي تتـلـافا
كـوشـمـر تشـمـير غير الواني

وقد شارك ابن الزيات شعره في الحياة السياسية أيام
شبابه - في عهد المأمون - واستطاع أن يصل إلى أهدافه ،
ويحقق أغراضه ، مستغلا في ذلك ما كان من خلاف بين أمراء
البيت العباسي . ونحن نسوق قصة هذه المشاركة ، لأنها تكشف
عن جانب من جوانب حياة ابن الزيات وخلقه ، فهو لا يريد أن
يكون مال أبيه و ثرائه غنيمة باردة لأحد الأمراء العباسيين ،
فتطوع بشعره ليرد المال على أبيه ، ويحفظ عليه ثروته . تقول (١)
القصة : « ان المأمون لما فرغ من حروبه مع الأمين أرسل إلى
العراق أنه قد عهد بالخلافة من بعده إلى علي بن موسى العلوي ،
ولقبه بالرضي ، وأمر الناس بترك السواد شعار العباسيين ، ولبس
الخضرة وهي شعار العلويين . وكان المأمون مازال يخراسان لم
يدخل بغداد ، فعظم هذا الأمر على من يبغداد من العباسيين
ووجوهم ، فخرجوا على المأمون ، وأقاموا منصور بن المهدي
خليفة ، ولقبوه بالمرتضى ، فضعف عن الأمر ، وقال : إنما أنا
خليفة المأمون ، فتركوه ، وعدلوا إلى أخيه إبراهيم بن المهدي
الأسود ، ولقبوه بالمبارك ، وكان يقال له التتین لضخامته ، ويقال

(١) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج : ٢ .

له ابن شكلة ، وهى أمه ، وكان أديبا فصيحاً شاعراً محسناً ، رأساً
 فى معرفة الغناء وأنواعه ، فجهز له المأمون جيشاً بقيادة حميد
 الطوسى ، فانهزم جيش ابراهيم ، وهرب على أثر ذلك ابراهيم
 ابن المهدي واختفى ، وبقي فى الاختفاء سبع سنين ، ثم ظفروا به
 وهو فى ازار امرأة ، فعفا عنه المأمون ، بعد أن أشار الجميع
 بقتله الا يحيى بن أكثم ، فانه قال للمأمون : اجعل عفوك عنه
 خيراً ومكرمة تذكر الى آخر الدهر ، فقبل رأى يحيى ، وأطلقه
 مكرماً . وكان ابراهيم بن المهدي - أيام خلافته - قد اقترض من
 أغنياء بغداد وكبار تجارهم مالا يدبر به شئون الخلافة ، حتى
 تستقيم الأمور ، ومن هؤلاء الذين اقترض منهم ابراهيم من
 التجار - عبد الملك بن الزيات ، والد محمد بن عبد الملك ،
 اقترض منه عشرة آلاف درهم ، ثم انتهى أمر ابراهيم ، ولم يرد
 الى الناس ما اقترضه منهم ، ومن بينهم عبد الملك . فتولى محمد
 عن أبيه مطالبة ابراهيم بالدين ، واستخدم الشعر فى هذه
 المطالبة .

ويروى صاحب الأغاني - فيما يسوقه من اخبار محمد
 ابن عبد الملك الزيات - هذه القصة بشيء من التفصيل ، ويذكر
 الشعر الذى قاله ابن الزيات فى هذه المناسبة ، فيقول (١) أبو الفرج :
 « حدثني عبد الله بن محمد بن عبد الملك الزيات أن ابراهيم

(١) الأغاني ج : ٢٠ .

ابن المهدي لما وثب على الخلافة اقترض من مياسير التجار مالا ،
 فاخذ من جدى عبد الملك عشرة آلاف درهم ، وقال له : أنا
 أردتها اليك اذا جاءنى مال ، ولم يتم أمره فاستخفى ، ثم ظهر ،
 ورضى عنه المأمون ، وطالبه الناس بأموالهم ، فقال : انما أخذتها
 للمسلمين ، وأردت قضاءها من فيهم ، والأمر الآن الى غيرى ،
 فعمل أبى محمد بن عبد الملك قصيدة ، يخاطب فيها المأمون ،
 ومضى بها الى ابراهيم بن المهدي ، فأقرأها اياه ، وقال : والله لئن
 لم تعطنى المال الذى اقترضته من أبى لأوصلن هذه القصيدة
 الى المأمون ، فخاف ابراهيم ان يقرأها المأمون ، فيتدبر ما قاله ،
 فيوقع به . فقال له : خذ منى بعض المال ونجم على بعضه ، ففعل
 أبى ذلك ، بعد أن حلفه ابراهيم بأوكد الايمان ألا يظهر القصيدة
 فى حياة المأمون ، فوفى له أبى ذلك ، ووفى ابراهيم بأداء المال
 كله .

ثم أورد بعد ذلك صاحب الأغاني هذه القصيدة التى نكتفى
 منها بما يأتى :

تذكر أمير المؤمنين قيامه
 وإيمانه فى الهزل منه وفى الجد
 اذا هز أعواد المنابر بإسته
 تغنى بلىلى أو بمية أو هند
 ووالله ما من توبة نزعته
 اليك ولا ميل اليك ولا ود

وهي قصيدة طويلة ، يرجع اليها في ديوانه ، وفي كتب التاريخ والأدب .

وإذا علمت أن المأمون قد تولى الخلافة عام ١٩٨ هجرية ، وأن الأمر قد استتب له في هذا العام ، أدركت أن ابن الزيات كان اذ ذاك في الخامسة والعشرين من عمره ، وكان على صلة بالقصر وكتاب الدواوين ، فهو في هذا الشباب الباكر لم يكن مغموراً ولا مجهولاً ، وإنما كان يشارك في الحياة الأدبية ، وفي مجالات الشعر ، وفي الأحداث السياسية ، حتى نجح بسلاح الشعر في استرداد مال أبيه المفقود ، وفي مجابهة أمير من أمراء البيت العباسي ، ومطالبته بحق أبيه ، والاشن عليه الحرب بشعره ، وأعاد الى ذاكرة المأمون ماضى عصيانه بما فر القصيد من غمراً صراح لا يخفى على المأمون .

من أجل هذا لجأ ابراهيم الى مروءة محمد بن عبد الملك الزيات ، في أن ينجم عليه المال ، ويأخذ جزءاً منه ، حيث لا يستطيع أن يوفي به ربه ، واستجابت مروءة الشاعر الى رجاء ابراهيم . فقبل المال منجماً ، وحبس الشعر عن المأمون .

وهذه القصة تدل على ما كان لأدب ابن الزيات من مكانة في ذلك العصر ، وما كان لشعره من أثر حتى في نفوس الأمراء ، وتدل من ناحية أخرى على وفاء محمد لأبيه ، وحرصه على ماله ، ومدافعته عن مصالحه المالية والتجارية ، رغم انشغاله بالأدب والشعر ، فلم يدع مال أبيه نهياً للأطماع ، وعرضة للضياع ، لأن

ابن الزيات لم يصل الى ما وصل اليه من مكانة الا بقوة هذا المال ، وبيجاه أبيه وراثته ، فلا غرو أن كان حريصا على هذا المال أن تبده مغامرات السياسيين . وبذلك طوع ابن الزيات أداته الفنية لتسجيل خطرات شبابه ، وجعل شعره سجلا للأحداث التي مرت به في تلك الفترة .

ولم ينس ابن الزيات في غمار هذه الأحداث التي مرت به أن يجعل لله جانبا من حياته ، فلم تشغله نزوات الشباب ، ولا مطامع النفس وآمالها ، ولا طموحه الى ارتقاء المجد ، عن الاتجاه الى الله ، والنزوح الى الأراضى المقدسة ، لأداء فريضة الحج ، فقد ذكر صاحب (١) الأغاني : « أن محمد بن عبد الملك الزيات شخص الى الحجاز في أواخر عهد المأمون » . فلم تلهه دنياه عن آخرته ، ولم يغفل هذا الجانب الروحي يكمل به دينه ، كما تمت عليه دنياه . وقد تحدث عن ذلك ابن المعتز في طبقات الشعراء فقال : « حدثني محمد بن علي البصري قال : كان بين الوزير ابن الزيات وبين أبي حكيمة مودة عجيبة ، وأنس كثير ، فقدم ابن الزيات من مكة ، فجعل الناس يحضرونه للتهنئة ، الا صديقه أبا حكيمة ، فقال بعض الحاضرين : أين صديقك أبو حكيمة ؟ فوصلت منه الى ابن الزيات رقعة فيها :

(١) الأغاني ج ٢٠ .

لا تنس عهدى ولا مودتيه
 واشتق الى طلعتى ورؤيتيه
 ان غبت عنكم فلم تغب كثرة الذ
 كر ولا تغفلن هديتيه
 التمر والمقل والمساويك والفلعة (١) للنعل وهى منيته
 فكتب اليه ابن الزيات :

انك منى بحيث ما يطرف النا
 ظر قربا من تحت دمعتيه
 لا والذى زادنى وفضلى
 على صحابى بطول صحبتيه
 ما خنت عهدا ولا نسيتك فى
 يوم دعائى ولا هديتيه

ثم حمل اليه ما طلب .

وقد رزق محمد بن عبد الملك الزيات كثيرا من الأولاد ، ورد
 ذكر بعضهم فى كتب التاريخ والأدب ، وروى بعضهم عن أبيه
 بعض أشعاره وحوادثه ، وأشهرهم سليمان بن محمد بن عبد الملك ،
 وعبد الله بن محمد بن عبد الملك ، وقد قبض عليهما المتوكل يوم
 قبض على أبيهما ، وسلمت اليهما جثته حين مات فى التنور ، ثم
 هارون وعبيد الله ، وقد ورد ذكرهما فى كتاب الأغانى يرويان

(١) الفلعة بكسر الفاء القطعة من السناب .

كثيرا عن أبيهما بعض أشعاره وحوادثه ، ثم ابنه عمر الذى ماتت عنه أمه وهو ابن ثمانى سنوات ، وبكاها ابن الزيات بما قدمناه من شعر فى رثائها .

بقيت بعد ذلك مسألة تستأهل التحقيق والبحث ، لأنها تتعلق بنسب ابن الزيات وأصله ، هل كان ابن الزيات عربيا خالصا لا تشوب نسيبه شائبة من عجمة أو تهجين ، أم كان من هؤلاء الأعاجم الذين وصلوا الى مراتب السلطان ، وتصدروا وظائف الدولة بما كان لهم من دالة على الخلفاء ، وأثر فى اقامة دولة بنى العباس ، أم ينحدر من أصول مختلطة منشابكة تجرى فيها دماء الفرس والعرب جنبا الى جنب ، وتمتزج فيها خصائص الجنسين ؟؟

لقد روى له المرزبانى فى معجمه من الشعر ما يدل دلالة قاطعة على أنه يفخر بنسبه الأعجمى ، ويسلكه فى عداد الأعاجم ، فينسب اليه هذين البيتين :

نحن بنو الفر المحجلينا الأعجمين والمتوجينا
لنا الفروسية ما بقينا بها خلقنا وبها سميّا

ولم نعثر فى ديوان ابن الزيات ولا فى المصادر الأخرى من كتب التاريخ والأدب على هذين البيتين ، ولا على ما يشبههما من قريب أو بعيد ، ولم نجد له بيتا واحدا يفخر فيه بأرومة أعجمية فى غير ما رواه المرزبانى فى معجمه ، مما يجعلنا نتحفظ أشد

التحفظ فى قبول ما رواه المرزبانى فى نسبة هذين البيتين الى محمد بن عبد الملك الزيات ، ولو أن ابن الزيات كان مغموز الأصل ، أو مطعون فى عروبه لكثرت ذلك فى شعر الشعراء الذين تناولوه بالهجو والتجريح - وهم كثيرون - دفعهم الحق والحمد الى النيل من ابن الزيات ، والتنقيب عن مثالبه ، فلم يجدوا بعد طول المعاناة الا ذمه بحرفة آياته وأجداده . ولقد هاجم محمد بن عبد الملك الزيات القاضى أحمد بن أبى دواد - على ما سيأتى ذكره - وغمزه فى نسبه بقصيدته التى يقول فيها :

تأييد وادعى القـربا وأثرى واستفاد أبا
فهو فى هذه القصيدة يشكك فى صحة انتماء أبى دواد الى قبيلة اياد العربية ، فلو كان هناك أدنى شك فى عروبة ابن الزيات لانتهاز القاضى أحمد بن أبى دواد هذه الفرصة للنيل من غريمه ، ولكال له الصاع صاعين ، وطعن عليه فى أصله ، وشكك فيه كما فعل ابن الزيات ، ولكنه لم يجد ما يعيره به الا لقبه الذى أورثته اياه تجارة أسرته فى الزيت ، ومع ذلك دافع ابن الزيات عن هذا اللقب ، ورد على خصومه بما يفهمهم ، وأشعرهم بأن هذا اللقب لا ينتقص من قدره ولا من حسبه ، فيقول :

الزيت لا يزرى بأحسابنا أحسابنا معروفة البيت
ولقد دافع صاحب كتاب أمراء البيان عن نسب ابن الزيات وأصله ، وقرر فيما قرره أنه كان عربى الأصل والنسب لا تشوب

هروته شائبة ، وهو فى هذا يؤيد ما ذهبنا اليه . وثمة دليل آخر يدعم هذا الرأى ، وهو تلك الصلة الوثيقة التى كانت تجمع بين الجاحظ ومحمد بن عبد الملك الزيات ، وتلك العلاقة التى كانت تربط بينهما ، حتى ان الجاحظ فارق بغداد عقب مصرع ابن الزيات ، ولم يهنأ له عيش بعد صاحبه فيها ، والجاحظ - كما نعلم - لسان من ألسنة الرد على الشعوبية ، والتغنى بمفاخر العرب ، والاشادة بأمجادهم ، فلو ان الجاحظ لم يكن على ثقة من عروبة ابن الزيات لما تقيأ ظله أيام وزارته ، ولما لازمه طرال مدة حكمه ، ولما أهدى اليه كتاب الحيوان ، كما أهدى كتاب البيان والتبيين الى القاضى أحمد بن أبى دواد العربى .

وهكذا نشأ محمد بن عبد الملك الزيات فى أزهى عصور التاريخ العربى ، معتدا بعروته ، وبلغته العربية - التى لم يعرف غيرها - وعاش دنياء العريضة يتطلع الى مكان الصدارة فى الدولة العباسية . وما ان حل عام عشرين ومائتين من الهجرة حتى كان ابن الزيات على موعد مع القدر ، فسلمه مقاليد الوزارة ، والتقى اليه بزماء الحكم .

الفصل الثالث ابن الزيات في الوزارة

وصل ابن الزيات الى المركز الخطير الذي صبت اليه
أحلامه ، وهفت اليه آماله ، فتولى الوزارة في عهد المعتصم ، وبلغ
بجده وطموحه أسمى ما تصبو اليه النفوس ، وتنطلع اليه الآمال :
فقد حكمه المعتصم في شئون الحكم ، وبسط في الوزارة يده
« وارتقى (١) من ابن تاجر يعد الدوايق الى أرقى رتب الخلافة ،
يصرف الأمور كما يرى ، ويقول : قد صنع بي الخليفة صنعة
تفرد بها ، نقلني من ذل التجارة الى عز الوزارة . وأحرز ابن
الزيات نعمة — كما قال له أحدهم — بحقها ، واستوجبها بما فيه
من أسبابها » .

ولم يكن وصول ابن الزيات الى هذا المركز الخطير فلتة من
فلات القدر ، أو مصادفة لم يعمل لها حسابها ، أو يأخذ نفسه
بأسبابها ، بل تعاونت المصادفة مع التقدير ، واستقامت معه في
حساب المستقبل ، فعمل منذ انحرف به ميله عن مهنة الآباء

(١) امراء البيان ج ١ ، ص ٢٠٠

والأجداد على أن يترسم الطريق الذى يصل به الى أمنيته، ويحقق له نظامه فى أكبر مناصب الدولة .

وكتب التاريخ تجمع على أن الحظ قد لعب دوره فى الوصول بصاحبنا الى مركز الوزارة ، ومهد له الطريق إليها ، فلم يجر اسمه على لسان المعتصم قبل أن تدفع به المصادفة الى مجلس المعتصم ، ولم تتجه إليه الأنظار فى بلاط الخليفة لتولى هذا المنصب . على أن ابن الزيات كان فى قرارة نفسه يعمل على الوصول الى منصب الوزارة ، وتطوف به أحلامه حول هذا المركز الخطير ، وتتدافع مطامحه الى أبعد الغايات ، فلما حانت الفرصة المواتية لم يتوان فى اقتناصها واهتباها ، وحشد لها كل ما أعده من خبرة ودراسة وذكاء .

ولو ان الحظ وحده هو الذى واتى ابن الزيات ، ولعب دوره فى ايصاله الى أكبر منصب فى عصره بعد الخلافة ، دون سند من كفاءة أو علم أو مقدرة ، لانكشف حاله بعد قليل ، ولقصرت همته عن تدبير الأمور وسياسة الملك ، ولبان عليه التصنع والمعجزة - على كثرة شائتيه وحساده - ولكن الفرصة واتت رجلا طموحا طلعة ، تتعلق همته بكبار الأمور ، وتتداول آماله الى عظامها ، وهو فى تطلعه وطموحه لم يسلك طريق الزلفى والنفاق ، أو يستخدم الدس والوقعة - على فشوهما فى عصره - وانما جمل نفسه لمنصب الوزارة بما يتطلبه من رجاحة عقل ، وسعة علم ،

وقوة ادراك ، ونفاذ بصيرة ، وحسن فطنة ، فكان له ما أراد ،
وفوق ما أراد .

ولقد اتفقت الروايات - فيما عدا الطبرى - على السبب
الذى مهد لابن الزيات وصوله الى مركز الوزارة ، وأجمعت على
أن المصادفة قد دفعت بابن الزيات الى طريق المعتصم فاستوزره .
ونحن نورد فيما يلى أهم هذه الروايات التى وردت فى كتب
المؤرخين :

قال ابن خلكان (١) « كان أحمد بن عمار البصرى وزير
المعتصم ، فورد على المعتصم كتاب من بعض العمال ، فقراه
الوزير عليه ، وكان فى الكتاب ذكر الكلاء ، فقال له المعتصم : ما
الكلاء ؟ فقال الوزير : لا أعلم ! وكان قليل المعرفة بالأدب . فقال
المعتصم : خليفة أمى ، ووزير عامى !! وكان المعتصم ضعيف
الكتابة ، ثم قال : ابصروا من الباب من الكتاب ، فوجدوا محمد
ابن الزيات المذكور ، فأدخلوه عليه ، فقال له : ما الكلاء ؟ فقال :
الكلاء العشب على الاطلاق ، فان كان رطباً فهو الخلا ، فاذا يبس
فهو الحشيش ، وشرع فى تقسيم أنواع النبات . فعلم المعتصم
فضله ، فاستوزره وحكمه وبسط يده »

ويروى ابن العماد (٢) الحنبلى عن ابن الأهدل ما يتفق مع رواية
ابن خلكان فيقول : « ان ابن الزيات كان فى أول أمره كاتباً ،

(١) وفیات الاميان ج ٤ .

(٢) شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ج ٢ .

فاتفق أن المعتصم سأل وزيره أحمد بن عمار البصرى عن الكلاء، ما هو؟ فقال لا أدري، فقال المعتصم: خليفة أمي ووزير عامي، انظروا من الباب من الكتاب، فوجدوا ابن الزيات، فسأله عن الكلاء، فقال: العشب على الاطلاق، فان كان رطباً فهو الخلا، وان كان يابساً فهو الحشيش، وشرع في تقسيم النبات فاستوزره وارتفع شأنه» .

وذكر صاحب كتاب هبة الأيام أن ابن الزيات كان في أول أمره من جملة الكتاب، وكان أحمد بن عمار وزير المعتصم، ثم ذكر قصة «الكلاء» على ما رواها ابن خلكان وابن العماد الحنبلي، وأنها كانت السبب في توليته الوزارة .

وينفرد الطبرى بأن ابن الزيات ولي الوزارة بعد الفضل ابن مروان بعد أن غضب عليه المعتصم لاستئثاره بالحكم، وتضييقه على الخليفة في النفقات، ولا بأس من إيراد ما ذكره الطبرى، إذ يستبين من خلاله ما كان لمركز الوزارة من جليل الخطر، وعظيم الشأن، وكيف وصل الفضل بن مروان إلى هذا المنصب .

يقول الطبرى: «ان الفضل بن مروان كان مع كاتب للمعتصم يقال له يحيى الجرمقاني، وكان الفضل بن مروان يخط بين يديه، فلما مات الجرمقاني صار الفضل في موضعه، ولم يزل كذلك حتى بلغ المعتصم الحال التي عليها، والفضل كاتبه، ثم قدم الفضل

قبل موت المأمون بغداد ينفذ أمور المعتصم ، ويكتب على لسانه
 بما أحب . حتى قدم المعتصم خليفة ، فصار الفضل صاحب
 الخلافة ، وصارت الدواوين كلها تحت يديه ، وكنز الأموال ،
 وأقبل أبو اسحق (المعتصم) حين دخل بغداد يأمره باعطاء المعنى
 والمهوى ، فلا ينفذ الفضل ذلك ، فثقل على أبي اسحق . حدثني
 ابراهيم بن جهرويه ؛ ان ابراهيم المعروف بالهفتى - وكان
 مضحكا - أمر له المعتصم بمال ، وتقدم الى الفضل بن مروان
 فى اعطائه ذلك ، فلم يعطه الفضل ما أمر له به المعتصم ، فبينا
 الهفتى يوما عند المعتصم بعد ما بنيت له داره التى ببغداد ، واتخذ
 له فيها بستانا ، قام المعتصم يمشى فى البستان ينظر اليه ، والى
 ما فيه من أنواع الرياحين والغروس ومعه الهفتى . وكان الهفتى
 يصحب المعتصم قبل أن تفضى الخلافة اليه ، فيقول له فيما يداعبه :
 والله لا تفلح أبدا . قال : وكان الهفتى رجلا مربوعا ذا كدنة ،
 والمعتصم رجلا معروقا خفيف اللحم ، فجعل المعتصم يسبق
 الهفتى فى المشى ، فاذا تقدمه ولم ير الهفتى معه التفت اليه ، وقال
 له : مالك لا تمشى ؟ يستعجله المعتصم فى المشى ليلحق به ، فلما
 كثر ذلك من أمر المعتصم على الهفتى قال الهفتى مداعبا له : كنت
 أصلحك الله أرانى أماشى خليفة ، ولم أكن أرانى أماشى فيجا(١) ،
 والله لا أفلحت . فضحك منها المعتصم ، وقال : ويلك ! هل بقى
 من الفلاح شئ لم أدركه ؟ أبعد الخلافة تقول هذا لى ؟ فقال له

(١) كلمة فارسية معناها رجل البريد .

الهفتى : أتحسب أنك قد أفلحت الآن ، انما لك من الخلافة
 الاسم ، والله ما يجاوز أمرك أذنك ، وانما الخليفة الفضل
 ابن مروان الذى يأمر فينفذ أمره من ساعته . فقال له المعتصم :
 وأى أمر لى لا ينفذ ؟ فقال له الهفتى : أمرت لى بكذا وكذا منذ
 شهرين ، فما أعطيت مما أمرت به منذ ذاك حبة . قال : فاحتجتها
 على الفضل المعتصم حتى أوقع به . فقيل ان أول ما أحدثه فى أمره
 حين تغير له أن صير أحمد بن عمار الخراسانى زماما عليه فى
 نفقات الخاصة ، ونصر بن منصور بن بسام زماما عليه فى الخراج
 وجميع الأعمال . وكان محمد بن عبد الملك الزيات يتولى ما كان
 أبوه يتولاه للمأمون من عمل المشمش والفساطيط وآلة الجمازات
 ويكتب على ذلك (مما جرى على يدى محمد بن عبد الملك) .
 فلما كانت سنة ٢١٩ هـ خرج المعتصم يريد القاطول ، ويريد
 للبناء بسامرا ، فصرفه كثرة زيادة دجلة ، فلم يقدر على الحركة ،
 فانصرف من بغداد الى الشماسية ، ثم خرج بعد ذلك ، فلما صار
 بالقاطول غضب على الفضل بن مروان وأهل بيته فى صفر ،
 وأمرهم برفع ما جرى على ايديهم ، وأخذ الفضل وهو مغضوب
 عليه فى عمل حسابه ، فلما فرغ من الحساب لم يناظر فيه ، وأمر
 بحبسه ، وأن يحمل الى منزله ببغداد فى شارع الميدان ، وحبس
 أصحابه ، وصير مكانه محمد بن عبد الملك الزيات . فصار محمد

وزيرا كاتبا ، وجرى على يديه عامة ما بنى المعتصم بسامرا من الجانبين الشرقى والغربى ، ولم يزل فى مرتبته حتى استخلف المتوكل فقتل محمد بن عبد الملك الزيات .

فأقوال الطبرى (١) صريحة فى ان ابن الزيات ولى الوزارة بعد الفضل بن مروان لما غضب عليه المعتصم ، ولم يل الوزارة بعد أحمد بن عمار كما ذكرت المصادر الأخرى . ويبدو - للربط بين الروايتين - أن المعتصم لما غضب على الفضل بن مروان ، وصير أحمد بن عمار زماما عليه فى نفقات الخاصة أمر ابن عمار أن ينهض مؤقتا بأعباء الوزارة ، حتى يجد من يخلف الفضل ابن مروان ، فلما أدخل عليه ابن الزيات فى قصة الكلاء ، ووقف منها على رجاحة عقله ، وسعة اطلاعه ، استوزره .

وقد ورد فى كتاب أمراء البيان ما يفيد أن الفضل بن مروان كان شديد الحذر من منافسة ابن الزيات له فى بلاط الخلافة ، وكان يتوسم فيه من الذكاء ما يؤهله لمركز الوزارة ، فيقول :

« وكان الفضل بن مروان نصرانى الأصل ، قليل المعرفة بالعلم حسن المعرفة بخدمة الخلفاء ، وقد حاول أن يسقط محمد ابن عبد الملك الزيات لأنه كان يتفرس فيه الذكاء النادر والعلم ، ولا يحب أن يشاهده فى دار الخلافة ، ولا أن يخالط أهلها ،

(١) ذكر ابن الأثير فى تاريخه هذه القصة نقلا عن الطبرى ، وتابعه فى ان ابن الزيات تولى الوزارة بعد الفضل بن مروان ج ٦ . ٥٠

ويعرف اسمه وورسمه ، فأيت الأقدار الا رفعه ، ثم تولى الوزارة أحمد بن عمار بعد أن غضب الخليفة على الفضل بن مروان ، ولما عرف المعتصم غناء ابن الزيات وعجز ابن عمار وجهله ، قال له المعتصم : انظر أنت في الدواوين ، وهذا يعرض على الكتب ، ثم استوزر ابن عبد الملك ، وصرف ابن عمار صرفا جميلا ، فاصبح ابن الزيات وزيرا وكاتبا ، وجرى على يديه عامة ما بنى المعتصم بسامرا من الجانبين الشرقى والغربى ، وأحيا المعتصم بذلك سنة أخيه المأمون بتقليده الوزارة الى كاتب ، وكان لا يتولاها فى عهد أخيه الا من جمع أسباب الفضل ، وذهب فى الأدب كل مذهب»

وهذا يقرب مسافة الخلف بين رواية الطبرى وما رواه غيره من المؤرخين ، ويتفق مع ما ذكرناه آنفا من أن وزارة ابن عمار لم تلبث الا عمر الزهر ، وتولى مقاليد الحكم محمد بن عبد الملك الزيات .

ومن العجيب أن ابن العماد الحنبلى فى كتابه شذرات الذهب عاد فى أخبار عام ٢٢٠ يؤيد رأى الطبرى ، بعد أن اتفق مع ابن خلكان فى روايته كما سبق فيقول : « وفيها غضب المعتصم على وزيره الفضل بن مروان ، وأخذ منه عشرة آلاف دينار ، ثم نفاه ، واستوزر محمد بن عبد الملك الزيات » .

والأقرب الى الصواب - للتوفيق بين اختلاف المصادر - هو ما ذكرناه من قبل فى تعليل هذا الاختلاف ، وسواء صحت هذه

الرواية أو تلك فإن الذى يعيننا ان المعتصم قلد محمد بن عبد الملك
الوزارة ، وأطلق يده فى شئون الحكم .

أما كيف استقبل ابن الزيات الوزارة ، ونهض باعبائها ،
وساس أمور الناس فيها ، فقد تكفلت كتب التاريخ ببيان ذلك :

يروى أنه حين تقلد الوزارة فى عهد الخليفة المعتصم وضع لها
تقليدا جديدا لم يجر العرف عليه فى عهد أسلافه من قبل ، فاشتراط
من الشروط ما يضى على مركز الوزارة كثيرا من المهابة والجلال ،
فجعل للوزير زيا خاصا يتميز به عن غيره ، كما يجرى العرف على
ذلك حتى الآن فى بعض الممالك اذ يتحلى رئيس الوزارة بحلة
التشريف الكبرى ، ويرصع صدره بالأوسمة والنياشين . واشتراط
ابن الزيات حين عرضت عليه الوزارة ألا يلبس القباء ، وأن يلبس
الدراعة ، ويتقلد عليها سيفا طويل الحمايل . وأن يفرد له حرس
خاص يقوم على حراسته وخدمته ، وقد أجابه المعتصم الى ما طلب .

وهذه البادرة التى استهل بها ابن الزيات عهده فى الوزارة
تدلنا على كثير من أخلاقه ، ففيها ما يدل على الاعتداد بالنفس
والثقة بها ، وفيها جماع سياسته التى يريد أن يستهل بها حكمه ،
وأن يجعل لمركزه من الخطورة فى أعين الشعب ما يحمله على
احترامه .. فهو - فى واقع الأمر - يريد أن يفهم الناس أن شئون
الحكم قد تغيرت وتطورت ، وأن الحزم والقوة هما عنوان العهد
الجديد ، وأن أمور الناس لا تستقيم الا بهما ، وأن مركز الوزارة

يجب أن يحاط بكثير من المظاهر التي تميزه عن غيره من المراكز في بلاط الخليفة . ولذلك ما لبث ابن الزيات أن قبض على زمام الحكم بيد من حديد ، وأطلق له الخليفة يده في شؤون الرعية ، وبسط سلطانه على الدولة ، فاستبد بشؤونها ، وجعل شعاره في تصريف الأمور تلك القولة الشائعة التي نسبت اليه « الرحمة خور في الطبيعة وضعف في المنة » مما أطلق فيه لسان حساده وشائيه فطعنوا عليه في دينه ، واستعلوا هذا الشعار للنيل منه ، لأنه أنكر صفة الرحمة التي وصف الله بها نفسه في كثير من المواطن . وفي ذلك يروى صاحب (١) الأغاني « عن ميمون بن هارون ، أن محمد بن عبد الملك الزيات كان يقول : « الرحمة خور في الطبيعة وضعف في المنة ، ما رحمت شيئا قط ، فكأنوا يطعنون عليه في دينه بهذا القول ، فلما وضع في الثقل والحديد قال : ارحموني ، فقالوا له : وهل رحمت شيئا قط فترحم ، هذه شهادتك على نفسك ، وحكمك عليها » .

ولم ينكر هذا الشعار من المؤرخين الا صاحب كتاب أمراء البيان ، حيث اتهم اعداء ابن الزيات بأنهم زيفوا عليه هذا الشعار وولدته مخيلتهم ، وتنادى به باطلهم ، ليطعنوا عليه في دينه ، ولينالوا منه عند العامة والخاصة ، معللا ذلك « بأنهم (٢) ما حملوا عليه ، ولفقوا من الأحاديث المسقطة له الا لأنه وصل الى المعالي

(١) الأغاني ج ٢٠

(٢) أمراء البيان ج ١

عن جدارة ، وكم سعى غيره ليلفوا منزلته فخابوا وما أفلحوا ، وعظم ما رمى به من تلفيق منافسيه وقاصديه ، ولن يرضى العامة والخاصة الا اذا عمل لهم رب الأمر والنهى المعقول وغير المعقول ، وصاحب الحاجة ارعن لا يروم الا قضاءها ، ومن كان على شئ من الاخلاق لا يستقيم له حال مع الغوغاء ، ومن أراد ان يصدع بالحق مع الكبير والصغير مقتته كل من لم يظفر بطلبته ، ويعز في الطبقات من تصبر نفسه على مر الحق ، وحرارة الاصلاح والتقويم .

على أن دفاع الكاتب - رغم حرارته - لا يستقيم امام اجماع المؤرخين على اسناد هذا الشعار الى ابن الزيات ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان اسلوب ابن الزيات في الحكم يتفق مع هذا الشعار نضا وروحا ، ويسايره معنى ومبنى ، فقد استحدث للتعذيب وسائل لم تكن معروفة من قبل ، وابتكر للعقاب ألوانا من البطش لا تمت الى الرحمة بوشيجة من الوشائج ، ولا تساير ايسر القواعد الانسانية . فقد عرف ابن الزيات في التاريخ بصاحب « التنور » واشتهر به من دون وزراء الدولة العباسية جميعا ، وذلك لأنه هو الذى استحدث هذه الآلة الرهيبة لتعذيب الشعب وارهابه واكرهه خصومه على الاعتراف ، والتكيل بأعدائه فى أبشع صور التكيل .

وقد أفاض المؤرخون فى وصف هذه الآلة الرهيبة بما تقشعر منه الابدان ، وتتقرز منه النفوس الرحيمة . فيقول ابن خلكان (١)

(١) وفیات الاعيان ج ٤

« وكان ابن الزيات قد اتخذ تنورا من حديد وأطراف مساميره المحدودة الى داخل ، وهى قائمة مثل رءوس المسال ، فى أيام وزارته وكان يعذب فيه المصادرين ، وأرباب الدواوين المطلوبين بالأموال ، فكيفما انقلب واحد منهم أو تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسامير فى جسمه ، فيجدون لذلك أشد الألم ، ولم يسبقه أحد الى هذه المعاقبة . وكان اذا قال له أحد منهم : أيها الوزير ارحمنى : فيقول له : الرحمة خور فى الطبيعة » .

وذكر المسعودى (١) : « أن ابن الزيات كان قد اتخذ للمصادرين والمغضوب عليهم تنورا من الحديد ، رءوس مساميره الى داخل ، قائمة مثل رءوس المسال فى أيام وزارته للمعتصم والوائق » وقال الخطيب البغدادي (٢) فى تاريخ بغداد : « وقد كان محمد بن عبد الملك الزيات قد صنع تنورا من الحديد ، فيه مسامير الى داخله ، ليعذب به من كان فى جسمه من المطالبين » . ومثل ما ورد فى خزنة الأدب للبغدادي (٣) « من أن ابن الزيات قد اتخذ تنورا من الحديد ، مساميره الى الداخل ، ليعذب فيه المصادرين والمطالبين ، فكيفما انقلب المعذب أو تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسامير فى جسمه ، واذا قال له أحد : ارحمنى أيها الوزير ، يقول له : الرحمة خور فى الطبيعة »

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٤ •

(٢) ج ٢

(٣) ج ١ طبعة بولاق

فهناك اجماع من المؤرخين على أن ابن الزيات قد ابتكر هذه العقوبة ، أو استخدمها - إذا كانت معروفة قبل ذلك - أداة من أدوات التنكيل والارهاب فى حكومته ، يدخل فى تنوره من يشاء ، ويعذب به من يريد ، امعانا فى العسف والطغيان ، وتمشيا مع سياسة الحزم والقوة التى اصطنعها ابن الزيات منذ تولى شئون الحكم .

ولم يكن تنور ابن الزيات هو الصورة البارزة من معالم حكمه فحسب ، بل ان بطشه بالناس - حتى بأصدق اصدقائه ، واستخدامه القسوة فى محاسبة الولاة واستتصاف أموالهم ، وطغيانه المطلق فى مؤاخذة المطالبين والمصادرين والتنكيل بهم ، كل ذلك كان مكملا للصورة البشعة التى صورها الرواة لحكمه ، ومتمما للألوان القاتمة التى غمرت الصورة بظلالها .

ولكن .. هل كان ابن الزيات جبارا بطبعه ، يجرى الاستبداد فى عروقه مجرى الدم ، ويطغى الطغيان على كل خلائقه ؟ أم ان سياسة الحكم كانت تقتضيه هذه الشدة ، وتتطلب منه هذه القسوة ، والافسار الأمر ، وانهار النظام ، وحلت الفوضى ؟ ..

نحن نعلم أن ابن الزيات قد ولى الوزارة فى خلافة المعتصم وأن الخليفة المعتصم - كما يقول الرواة - لم يكن على حظ من العلم أو الأدب أو الثقافة ، بل كان لايجيد الخط على قول بعضهم ، وان الخليفة قد أطلق يد وزيره فى شئون الحكم ، وبسطها

في أموره ، فحكم ابن الزيات حكما مطلقا - بحكم الظروف - دون أن يخشى رقابة أو مساءلة . ولم يكن المعتصم في مثل ذكاء أخيه المأمون وعلمه ودهائه ، ولا في مثل قوة أييه الرشيد الذي أطاح بالبرامكة وأزال حكمهم . من أجل هذا لم يجد ابن الزيات أمامه القوة الرادعة من سلطان الخليفة التي تحد من جبروته وبطشه ، بل بالعكس مد له المعتصم في أسباب الطغيان بترك مقاليد الحكم كلها في يد وزيره ، فأراد ابن الزيات أن يكون عند حسن ظن خليفته به ، وثقته فيه ، وأن يسوس الناس بشيء من الحزم والشدة ، لتستقيم الأمور في عهد ضعف فيه سلطان الخلفاء - بعد أن كانوا مصدرا لكل السلطات - .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن ابن الزيات كان في واقع الأمر مضطرا الى اصطناع هذه السياسة ، لأن الدولة في عصره كانت تضم أخلاطا من شعوب الأرض ، وأنماطا مختلفة من العقائد والمبادئ ، وكانت تضطرم بكثير من الثورات والانتفاضات والآراء الهدامة ، فلو سارت سياسة الحكم فيها على ضعف الخلفاء وتهاون الوزراء ، لفسد الأمر ، وضاعت الهيبة ، واختل النظام فابن الزيات في كل ما صنع كان مسوقا اليه بعامل الحفاظ على هيبة الدولة ، وإقرار النظام في ربوعها المختلفة (١) .

(١) يؤيد هذا ما ورد في قصيدة ابى تمام التي يمدح بها ابن الزيات حيث يقول :
 نحن نعلموا حوشية فيك دونها لقد علموا عن اى علق تناضلوا

ولذلك نلّس في وصف ابن خلكان السابق للتور ما ينهض
دليلا على ذلك ، وهو قوله : « وكان يعذب فيه المصادرين وأرباب
الدواوين المطلوبين بالأموال » . فهو لم يستخدم القسوة
الا للمحافظة على أموال الدولة ، ومحاسبة الولاة المقصرين على
ما فرطوا في حق رعاياهم ، أو على ما بددوا من أموال الشعب .

ولو أن ابن الزيات لم يعمد الى هذه السياسة في تدير شؤون
الحكم ، واستخدم الرأفة والملاينة في محاسبة ولائه ، وعطف
على المصادرين ، وأمهل المطالبين بالأموال ، لاتهم بالتفريط في
حق الدولة ، ولشاعت الفوضى في الولايات ، واستبد كل حاكم
بولايته يتصرف فيها على هواه ، ويبدد من خراجها كما يشتهي ،
ولانحلت العرى التي تربط كل ولاية بعاصمة الحكم ، كما حدث
بعد ذلك حين ضعفت الدولة العباسية .

فأنت في حكمك على سياسة محمد بن عبد الملك الزيات وتنوره
بين عاملين : عامل الاشفاق على الرعية ، واتهامه بالقسوة والبطش
وعامل التماس العذر له في تلك السياسة التي لم يكن ثمة مندوحة
عن استخدامها من أجل صالح الشعب ، وأموال الشعب . ولكن
بقى السؤال الذي سقناه قبل ذلك من غير جواب ، وهو : هل
كان ابن الزيات جبارا بطبعه ؟ ان ابن الزيات في نظرنا قبل أن يكون
سياسيا كان رجل فن وأدب وعلم ، وطبيعة الفنان — فيما نعلم —
تنأى به عن أن يكون جبارا في الأرض ، يبطش بالناس ، وينكل

بهم . فكيف اتفق لهذا الفنان المرهف الحس أن يترك من ورائه
دوياء في منصب الوزارة ترتعد منه الفرائص ، وتخور العزائم ،
وتنخلع القلوب ، مما أطلق فيه السنة الخصوم والأعداء ؟؟ هل
كان محمد بن عبد الملك الزيات الوزير الكاتب الشاعر مصابا
بازدواج الشخصية ، فهو رقيق العاطفة ، لين العريكة ، رحب الجنب
حين يجلس الى الشعراء والأدباء والعلماء ، أو يخلو الى تدمائه في
مجالس قصفه ولهوه ، ثم هو طاغية جبار اذا ماضيه مجلس الحكم
وأخذ ينظر في أقضية الناس ، ومصالح الخلق ، فيصرخ في زبائنه
أن اشعلوا تنوركهم ، وأوثقوا ضحاياكم ، واقدفوا بهم في ذلك
الوهج المضطرم ، حتى تنضج جلودهم ، وتقرح ابدانهم !

اننا نرجح في محمد بن عبد الملك الزيات جانب الشاعرية
ونقف في صف الفنان دون أن تتحيف جانب الحق أو نميل ،
ونعتقد أن مادفعه الى استخدام القسوة - حتى مع أعز أصدقائه
انما هو حرصه الشديد على مصلحة الدولة ، ومصلحة الشعب .
وهذا مما يتفق مع طبيعة الفنان الذى يتفر من كل ما يمس مثله
العليا أو يهدمها ، ولو كانت في شئون الحكم وأسلوبه .

وهذا صاحب كتاب امراء البيان ينظر الى نفس الموضوع من
مثل هذه الزاوية ، فهو يعترف بالقسوة التى استخدمها ابن الزيات
فى حكومته ، ولكنه يلتمس له شتى المعاذير فى استخدام هذه
القسوة ، كما حاول فيما سبق أن ينفى عنه الشعار المنسوب اليه

وهو « الرحمة خور في الطبيعة ، وضعف في المنة » ويدل على أن ابن الزيات إنما استخدم هذه القسوة لصالح الرعية ، وصالح العدل . فيقول في امراء البيان : « وفي سنة ٢٢٩ نصب ابن الزيات لأصحاب المظالم العداوة ، فكشفوا وجسوا ، وأقيموا للناس ولقوا كل جهد ، ومن جملتهم صديقه ابراهيم بن العباس الصولي نسي صداقته في مطالبته بما تأخر في ذمته من حق بيت المال ، فاستهدف لهجائه . وهكذا كان ابن الزيات مع سائر الناس لا يجيز لعامل أن يسرق ، ولا للرعية أن تتلكأ في أداء ما عليها ، حتى ينتظم سير الأعمال . فهو رجل الدولة خلق للحكم ، وكان معاني الحكم مزوجة بلحمه ودمه ، حتى لقد هجى بذلك ، وكان من حقه أن يمدح » .

ويعال في موضوع آخر أسباب تعامل الرواة عليه بسبب سياسته ، وانتقاصهم من مكاتته ، فيقول : « لاجرم أن اشتغال ابن الزيات بسياسة الدولة أضاع من مكاتته الأدبية ، والناس في كل زمان يرهبون القريب من السلطان ، ويفتأبونه في السر ، ويستثقلون ظله ، أو يعادونه لعدة أسباب ، فابن الزيات كان يدعو الأمة الى حرمة القوانين ، وكثير من الناس من يحبون الخروج عليها ، ويمقتون من يدعو اليها ، ويحقنون عليه . ومنهم الحساد الذين يشق عليهم الاقرار بفضائل أهل الفضل ، ومنهم أعداء عزه ، وأعداء مذهبه ، ومثل منصبه الخطير مما تلتهب الصدور الى الوصول اليه . ومن تولى وزارة أعظم خلافة أربع عشرة سنة

لخليفتين دون انفصال ، وتولاها الثالث أيضا ، على ما لم يكن يعهد له نظير في دولة من الدول لا يتوقع من الناس كافة أن يجمعوا على حبه . ولطالما سلبت أهواء السياسة من ذوى الفضل فضلهم ، ومن أجلها عراهم أرباب اللؤم من محامدهم » .

ونحن لا يعوزنا الدليل على حرص محمد بن الملك الزيات على أموال الدولة ، وخوفه عليها من سرف الخلفاء والأمراء ، وكثرة معاناته من ذلك ، فقد تكفلت كتب التاريخ ببيان ذلك كله ، وأظهرت لنا كيف كان هذا الوزير يقف في وجه خليفته أحيانا ليبقى على أموال الدولة ، وكيف كان يصطنع الحزم مع الأمراء في أعطياتهم ورواتبهم .

وفيما رواه صاحب الاغانى (١) عن قصة الواثق وقلم الجارية مايفصح عن سياسة ابن الزيات في كل ما يتعلق بشئون الدولة المالية قال صاحب الاغانى : « كانت قلم الصالحية (٢) مولدة صفراء ، حلوة ، حسنة الغناء والضرب ، حاذقة ، قد أخذت عن ابراهيم وابنه اسحق ، وكانت لصالح بن عبد الوهاب أخى أحمد بن عبد الوهاب كاتب صالح بن الرشيد ، وقد غنى أحد المغنين لها لحنًا بين يدي الواثق في شعر محمد بن كناسة ، قال :

(١) الاغانى ج ١

(٢) ورد اسمها في تاريخ الكامل لابن الاثير « علم » جارية صالح بن

عبد الوهاب

فى انقباض وحشمة فاذا صادفت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسى على سجيتهما وقلت ماقلت غير محتشم

فسأل الوراق عن الصنعة فيه ، فقيل : لقلم الصالحيه جارية
صالح بن عبد الوهاب ، فبعث الى محمد بن عبد الملك الزيات
فأحضره ، فقال : ويلك من صالح بن عبد الوهاب هذا ؟ فأخبره .
قال : أين هو ؟ ابعث فأشخصه ، وأشخص معه جاريته ، فقدمنا
على الوراق ، فدخلت عليه قلم ، فأمرها بالجلوس والغناء فغنت ،
فاستحسن غناها ، وأمر بابتاعها ، فقال صالح : أبيعها بمائة
الف دينار وولاية مصر ، فغضب الوراق من ذلك وردھا عليه . ثم
غنى بعد ذلك زرزور الكبير فى مجلس الوراق صوتا ، الشعر فيه
لأحمد بن عبد الوهاب أخى صالح ، والغناء لقلم ، وهو ..

أبت دار الأجرة أن تينا أجذك ما رأيت لها معينا
تقطع نفسه من حب ليلى نفوسا ما أثبن ولا جزينا

فسأل الوراق لمن الغناء ؟ فقيل : لقلم جارية صالح ، فبعث الى
ابن الزيات أشخص صالحا ومعه قلم ، فلما أشخصهما دخلت على
الوراق ، فأمرها أن تغنيه هذا الصوت فغنته ، فقال لها : الصنعة
فيه لك ؟ قالت : نعم يا أمير المؤمنين . قال : بارك الله عليك ، وبعث
الى صالح فأحضره ، فلما حضر قال : أما اذ وقعت الرغبة فيها من
أمير المؤمنين فما يجوز أن أملك شيئا له فيه رغبة ، وقد أهديتها
الى أمير المؤمنين ، فإن من حقها على اذا تناهيت فى قضائه أن

أصيرها ملكه ، فبارك الله له فيها ، فقال له الوراق : قد قبلتها ، وأمر ابن الزيات أن يدفع اليه خمسة آلاف دينار ، وسماها احتياطاً ، فلم يعطه ابن الزيات المال ، ومطله به ، فوجه صالح الى قلم من أعلمها ذلك ، فغنت الوراق - وقد اصطبج - صوتاً ، فقال لها الوراق : بارك الله فيك وفيمن ربك ، فقالت : ياسيدي ، وما نفع من رباني الا التعب ، والغرم على ، والخروج منى صفراً ، قال : أو لم آمر له بخمسة آلاف دينار ؟ قالت : بلى ، ولكن ابن الزيات لم يعطه شيئاً . فدعا بخادم من خاصة الخدم ، ووقع الى ابن الزيات بحمل الخمسة آلاف دينار اليه ، وخمسة آلاف دينار أخرى معها قال صالح : فصرت مع الخادم اليه بالكتاب فقربني وقال : أما خمسة الآلاف الأولى فخذها فقد حضرت ، وخمسة الآلاف الأخرى أنا أدفعها اليك بعد جمعه !! فقلت ، ثم تناساني كأنه لم يعرفني ، وكتبت اقتضيه ، فبعث الى ، اكتب قبضاً بها وخذها بعد جمعه ، فكرهت أن أكتب قبضاً بها فلا يحصل لي شيء فاستترت وهو في منزل صديق لي ، فلما بلغه استتاري ، خاف أن أشكوه الى الوراق ، فبعث الى بالمال ، وأخذ كتابي بالقبض ، ثم لتيني الخادم بعد ذلك ، فقال لي : أمرني أمير المؤمنين أن أصير اليك فأسألك ، هل قبضت المال ، قلت : نعم قد قبضته ، قال صالح : وابتعت بالمال ضيعة وتعلقت بها ، وجعلتها معاشي ، وقعدت عن عمل السلطان فما تعرضت منه لشيء بعدها .

قابن الزيأت يجاهد ما وسعه الجهد فى الحفاظ على أموال الدولة ، ويؤجل دفع ما أمره الخليفة بدفعه فى احدى نزواته ،
عنه ينسى ، أو تعبى المباطلة صاحب الحق ، فيبقى للدولة مالها .

وأخرى كانت سببا فى غضب الوراق على ابن الزيأت ، حتى أقسم
على البطش به ان ولى الخلافة ، وهى تدل من جهة على شدة
حرص الوزير على مال الدولة ، وتدل من جهة أخرى على قسوته
وشدته حتى على ولى عهد المسلمين « الوراق » .

روى صاحب كتاب أمراء البيان (١) « أن المعتصم أمر بأن يعطى
الوراق عشرة آلاف ألف درهم ، يستعين بها على أمره ويصلح
بها ما يحتاج الى اصلاحه ، فدافعه ابن الزيأت فى ذلك مدافعة
متصلة ، أحوجت الوراق الى شكايته الى المعتصم ، فانكر المعتصم
تأخر المال عن ولده ، فقال ابن الزيأت : يا أمير المؤمنين ، العدل
أولى بك ، وأشبه بقولك وفعلك ، ولك عدة أولاد أنت فى أمرهم
بين خلتين ، اما أن تسوى بينهم فى العطية ، فتجحف بيت المال ،
واما أن تخص بعضهم فتجحف على الباقين .. فقال المعتصم : قد
رهنت لسانى ، فما تصنع ؟ قال : تأمر لباقى ولدك باقطاعات
وصلات ، وتطلق لهرون (الوراق) صدرا من المال ، فأدافعه

(١) أمراء البيان ج ١ . وقد وردت القصة ايضا فى الجزء الرابع من وفيات
الأمراء ..

بإيقه ، ويتسع الأمر قليلا ، وندبره بعد ذلك بما تراه ، فقال له : وفقك الله ، فمازلت أعرف الصواب في مشورتك . وتأدى الخبر الى هرون (الواثق) فحلف بعق عبيده ومماليكه ، وبجس عدة خيل ، ووقف عدة ضياع ، وصدقة مال جليل لئن ظفر بمحمد ابن عبد الملك الزيات ليقتلنه وكتب اليمين بخطه ، وجعلها في درج وأودعها دايته ، ومرت مدة وأفضى الأمر الى هرون ، وكان ذا أناة وعقل ، فكره أن يعاجله ، فيقول الناس : بادر بشفاء غيظه . ثم عزم على الايقاع به ، فتقدم بأن يجمع له من وجوه الكتاب من يصلح لولاية الدواوين والوزارة ، فجمعوا ، ودعا بواحد منهم وقال له : اكتب كذا في أمر رسمه له ، فاعتزل وكتب ، وعرض الكتاب عليه فلم يرضه ، حتى امتحن الجميع ، فأمر صاحبه فقال : أدخل من الملك مضطر اليه محمد بن عبد الملك الزيات ، فجيء به وهو واجم مضطرب ، فلما وقف بين يديه قال له : اكتب الى صاحب (١) خراسان في كذا وكذا ... فأخرج من كفه نصفا ، ومن خفه دواة ، وابتدأ يكتب بين يديه حتى فرغ من الكتاب ، ثم أخرج خريطة فيها حصى ، فأترب الكتاب وأصلحه ، وتقدم فناوله إياه ، فوجده قد أتى على جميع ما في نفسه ، فأعجب به جدا ،

(١) في رواية ابن خلكان أن الأمر حين صار الى الواثق أمر الكتاب أن يكتبوا ما يتعلق بأمر البيعة ، فكتبوا . فلم يرض بما كتبوه ، فكتب ابن الزيات نسخة وصيحتها ، وأمر بتحرير المكاتبات عليها ، فكفر من يمينه ، وقال : من المال والذهب من اليمين عوض ، وليس عن الملك وابن الزيات عوض .

وقال : اختمه ، فأخرج من الخريطة طينا فوضعه عليه ، وتناوله فختمه وأنفذه من ساعته . فقال الواثق لخدمه له : امض الى دايتي ، وقل لها توجه الى بالدرج الفلاني ، فمضى الخادم فجاء به ، فأخرج الرقعة ودفعها اليه ، فقال ابن الزيات : يا أمير المؤمنين أنا عبد من عبيدك ان وفيت يمينك فأنت محكم ، وان غفرت وصفحت كان أشبه بك ، قال : لا والله ، ما يمنعني من الوفاء بيمينى الا التعاسة على أن يخلو الملك من مثلك ، وأمر بعثق من حلف بعثقه ، ووقف الضياع ، وجبس الخيل ، وأنفذ صدقة المال . وقال الواثق : عن المال والفدية عن اليمين عوض ، وليس عن الملك وابن الزيات عوض . »

ويتناول صاحب النشوار قصة غضب الواثق على ابن الزيات من ناحية أخرى ، وان كانت لا تخرج فى تفاصيلها عما عرف عن ابن الزيات من الحزم والمحافظة على أموال الدولة ، فيقول : « غضب الواثق على ابن الزيات بما كان محمد بن عبد الملك يعامله به فى أيام أبيه ، فمن ذلك أن معلم الواثق شك الى المعتصم أن الواثق لا يتعلم ، فاذا طالبه بذلك شتمه ، ووثب عليه ، فأمر المعتصم محمد بن عبد الملك الزيات بأن يضرب الواثق أربع مقارع ، فخرج محمد ، واستدعى الواثق ، وضربه ثلاث عشرة مقربة حتى مرض ، فلما عرف أبوه الخبر أنكر ذلك ، وحلف للواثق أنه ما أمر محمدا الا بأن يضربه أربع مقارع ، فأخفاها الواثق فى نفسه ، فكان ييغضه ، وعلم محمد بذلك فكان يقصده

فى ضياعه وأملاكه لما ترعرع ، وصار أميراً . فوقع المعتصم يوماً
 أن يقطع الواثق ما قيمته ألف ألف دينار ، فمحاها محمد وكتب
 ما قيمته ألف ألف درهم ، فلما دخل عليه الخادم ، وعرفه ماعمله
 محمد ، وثب الى أبيه وعرفه بذلك ، وعرض التوقيع عليه ، فقال
 له المعتصم : ما أغير ما وقعت به ، وما أرى فى التوقيع اصلاحاً ،
 وكان محمد قد أجاد محوه ، وعلم المعتصم أن رأى محمد فى
 الاقتصاد أصلح . فبطل ما كان يريد الواثق وانصرف ، ثم قال
 لخادمه : قد تم على من هذا الكلب كل مكروه ، فان أفضت
 الخلافة الى قتلنى الله ان لم أقتله ، ثم قال له : أنت خادمى وقتى ،
 فان أفضى هذا الأمر الى فاقتله ساعة أخاطب بالخلافة ولا
 تشاورنى ، وجئنى برأسه . قال : فمضت الأيام ، وتقلد الواثق ،
 فحضر الدار فى أول يوم محمد بن عبد الملك الزيات مع الكتاب ،
 فتقدم الواثق الى الكتاب بأن يكتب كل منهم نسخة بخبر وفاة
 المعتصم ، وتقلده الخلافة ، فكتبوا بأسرهم ، وعرضوا ذلك عليه
 فلم يرض ، فقال لمحمد : اكتب أنت ، فكتب فى الحال بلا نسخة
 كتاباً حسناً ، وعرضه فاستحسنه ، وأمر بتحرير الكتب عليه ، ولم
 يبرح حضرته حتى أقره على الوزارة ، وخرج من بين يديه والناس
 اكلمهم خلفه ، قال الخادم : فعجبت من ذلك وقلت : تراه أنسى
 ما كان أمرنى به ؟ لم لا أستأذنه فى ذلك ، وأذكره به ؟ فتقدمت
 اليه لما خلا ، وأذكرته الحديث واستأذنته ، فقال : ويحك !
 السلطان الى محمد بن عبد الملك أحوج من محمد الى السلطان .

وشبيه بهذا ما روته كتب التاريخ عن المعاملة التي كان يلقاها المتوكل وهو ولي للعهد في خلافة الواثق من الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، فقد ضيق عليه في مخصصاته حتى لا ينعن في الاسراف واللغو، وعامله كما يعامل افراد الناس، مما أحفظ عليه المتوكل ، حتى نكبه في خلافته ، فابن الزيات لا يفرق في المعاملة بين كبير وصغير ، الكل أمامه سواسية ، لا فرق بين ولي عهد المسلمين ورجل من عامة الناس ، فهو عدو الاسراف حيث وجد ، حريص على كل أموال الدولة في كل تصرفاته ، ولو كان الطامعون فيها من الأمراء والأصدقاء ، لا يبالي في سبيل ذلك غضب الغاضبين ، وحقد الحاقدين ، ولا يحتاط لمستقبل الأيام فيرضى أولياء العهد ، ويتملقهم ، حتى لا يبطشوا به ان ملكوا، ولا يتعظ بما جرى له مع الواثق قبل أن يلي الخلافة ، فيعقد على أخيه من أموال الدولة ، ضمانا لمستقبل أيامه معه ، شأن الفنان الذي تملكه نوازع الفن ، فتناى به عن كل اسفاف وتملق .

حتى ان صديقه الحميم ابراهيم بن العباس الصولي لم تشفع له صداقته ، ومركزه الأدبي عند ابن الزيات حين أسرف في نهب أموال ولايته بالأهواز ، فعزله وجبسه ، واستصفى أمواله ، ولم ينقذه من يد ابن الزيات الا نكته على يد المتوكل .

ولقد أتى على بغداد حين من الدهر في خلافة الواثق ، كانت الخلافة تدور فيه على ايتاخ وكاتبه سليمان بن وهب وعلى أشناس

وكتابه أحمد بن الخطيب فكانوا يغترفون من أموال الدولة ما يشاءون ، ويجمعون من أموال الخراج ما يريدون ، فعز هذا الأمر على الوزير ابن الزيات ، ودفعته طبيعته فى الحرص على أموال الدولة الى أن يضع لهذا العبث والاسراف حدا . ولكن يد هؤلاء القواد وكتبتهم كانت أقوى من يده بما تحت ايديهم من الجند الاتراك ، غير أنه لم ييأس ، وظل يعمل الحيلة فى رفع الأمر الى الواثق ليوقفه على ما يهدد خزائنه من خراب ، فصنع فى ذلك قصيدة (١) ، وأوصلها الى الواثق على أنها لبعض أهل العسكر ، فكان سلاحه الشعرى سببا فى رفع يد هؤلاء عن التدخل فى شئون الحكم ، والحد من نههم لأموال الدولة . والضرب على أيدي أنصارهم وجنودهم .

هذا البطش بالعابثين المستهترين ، وهذا الحفاظ على أموال الدولة ، وهذا الحزم الذى صبغ حكم الوزير ابن الزيات بصبغته . هو مادعا أكثر المؤرخين الى وصفه بالطغيان والعسف ، فالسكندرى فى الوسيط يقول عنه انه كان داهية جبارا ، وينعته فى موضع آخر « بالوزير العظيم الشاعر الكاتب السياسى الجبار ، ويقول عنه الدكتور جميل سعيد فى مقدمة ديوانه « كان فى وزارته جبارا متكبرا غليظ القلب خشن الجانب ، مبغضا الى الخلق ، ولكنه

(١) جاء فى مطلعها :

فيه البرية من خوف ومن وجل
وكلهم حاطب فى جبل محتل

أجرت أم رقدت منك من عجب
وليت أربسة امر البسادة معا

كان رجلا لا نظير له في عصره » ، وما ذلك الا لما استخدمه هذا
الوزير في سياسة الملك من حزم وشدة ، وانك لتلمس هذا الحزم
في شعر مادحيه من كبار الشعراء يمدحونه به ويشيدون بذكره ،
فيقول البحتري في مدحة :

صارم العزم ، حاضر الحزم ، ساري ال
فكر ، ثبت المقام ، صلب العود
ويقول أبو تمام :

خلق مشرق ورأى حسام
وداد عذب وريح جنوب
ان تقاربه أو تباعده ما لم
تأت فحشاء فهو منك قريب

وبعد ، فان حياة ابن الزيات لم تكن - في وزارته - بطشا
وتنكيلا بالناس في غير ما سبب ، ولم تكن طغيانا يعصف بالآمنين
وغير الآمنين ، واعصارا يجتاح البريء والمذنب ، لقد كانت فيها
جوانب من الرحمة توائم طبيعة الفنان . ذكر (١) صاحب الأغاني
« أن رجلا توسل الى آخر بمحمد بن عبد الملك وادعى قرابته ليقضي
حاجته ، وبلغ ذلك محمدا فكتب الى المتوسل اليه : بلغني أن رجلا
ادعى قرابتي ، وأورد عليك كتابا ذكر أنه مني ، وما أنكر أن

(١) الأغاني ج ٤٠

ينتفع بى من توسل بنسبى ، الا أن من ادعى قرابة ، ولا قرابة له كان استعمال الشفاعة فى أمره أولى » أرأيت أبلغ من هذا فى الكشف عن جوانب هذه النفس العظيمة ؟ تلك واحدة ، وأخرى رواها أبو الفرج نفسه قال : « حدثنى هرون بن محمد بن عبد الملك قال : جلس أبى يوما للمظالم ، فلما انقضى المجلس رأى رجلا جالسا ، فقال له : ألك حاجة ؟ قال : نعم ، تدنينى اليك فانى مظلوم فأدناه فقال : انى مظلوم وقد أعوزنى الانصاف . قال : ومن ظلمك ؟ قال : أنت ، ولست أصل اليك فأذكر حاجتى . قال : ومن يحجبك عنى وقد ترى مجلسى مبدولا . قال : يحجبنى عنك هيئتى لك ، وطول لسانك وفصاحتك ، واطراد حجتك . قال : ففيم ظلمتك ؟ قال : ضيعت الفلانية أخذها وكيلك غصبا بغير ثمن ، فاذا وجب عليها خراج أديته باسمى ، لئلا يثبت لك اسم فى ملكها فيبطل ملكى ، فوكيلك يأخذ غلتها ، وأنا أؤدى خراجها ، وهذا مما لم يسمع فى الظلم مثله . فقال محمد : هذا قول تحتاج عليه الى بينة وشهود وأشياء . فقال له الرجل : أيؤمننى الوزير من غضبه حتى أجيب ؟ قال : قد أمنتك . قال : البينة هم الشهود ، واذا شهدوا فليس يحتاج معهم الى شئ ، فما معنى قولك بينة وشهود وأشياء ؟ ايش هذه الأشياء الا العى والتعطرش ؟ فضحك ابن الزيات وقال : صدقت ، والبلاء موكل بالمنطق ، وانى لأرى فيك مصطنعا ، ثم وقع له برد ضيعته ، وبأن يطلق له كر حنطة وكر شعير ومائة دينار يستعين بها على عمارة ضيعته ، وصيره من أصحابه واصنعه » .

فأنت ترى من هذه القصة كيف كان الوزير « صاحب التنور » يفسح صدر لكل مظلوم ، ويوطئ كنفه لكل مهضوم ، ويتتصف لصاحب الحاجة ولو من نفسه ، ويردها عليه أضعافا مضاعفة ، لأن طبيعته القاسية مع ذوى النفوذ والسلطان ، تزخر بالرحمة والعطف على البؤساء والمظلومين ، فهو لا يدخر وسعا في رفع الظلم عنهم ، وتحقيق مطالبهم ، ولو كان الظلم واقعا منه أو من أحد رجاله .

وتستبين رحمة هذا الوزير وعطفه فيما رواه المصدر نفسه من أن غلات أهل البيت لحقت بها آفة في أيام محمد بن عبد الملك الزيات من جراد وعطش ، فتكلم إليه جماعة منهم ، وشرحوا له ما أصاب غلاتهم من الآفات ، فوجه ببعض أصحابه ناظرا في أمرهم ، وكان في بصره ضعف ، فكتب إليه محمد بن علي البتي :

أنت أمرا يا أبا جعفر
لم يأتته بر ولا فاجر
أعنت أهل البيت إذ أهلكوا
بنظر ليس له ناظر

فبلغه فضحك ورد الناظر ، ووقع لهم بما سألوا بغير نظر .
ويروى التاريخ كثيرا مما يدل على سماحة ابن الزيات وسعة صدره أيام وزارته ، فمن ذلك أن أبا دهمان المغنى كان بمجلس الوزير ، فغافل أبو دهمان الوزير وسرق من مجلسه منديلا

دبقيا ، فجعله تحت عمامته ، والوزير يراه ، فلم يشعره بأنه وقف
على ما صنع ، وتركه يخرج بما سرق ، ثم أنشد .

ونديم سارق خاتلنى
وهو عندى غير مذموم الخلق
ضاعف الكور على هامته
وطوى منديلنا طى الحرق
يا أبى دهمان لو جاملتنا
لكفيناك مئونات السرق

ولقى الكنجى يوما محمد بن عبد الملك الزيات ، فسلم عليه
الكنجى ، وكان الوزير مشغولا فلم يلتفت الى الكنجى حين سلم
عليه ، فغز على الكنجى هذا ، وأطلق لسانه فى ابن الزيات
وقال :

هذا وأنت ابن زيات تصغرنا
فكيف لو كنت يا هذا ابن عطار

وبلغ الشعر محمدا فاعتذر الى جلسائه بأنه لم ير الكنجى ،
ولم يستمع الى قول قائلهم بأن الكنجى يجب أن يعاقب على
هجائه ، ويحاسب على شعره .

ولقد هجاه كثير من الشعراء بأفدع هجاء ، وأفحش قول ،
وكان فى مركزه يستطيع ان يكيد لهم ، وأن ينتقم منهم ، ولكنه

عف عن مؤاخذتهم ، وترفع عن الانتقام منهم ، واكتفى بأن يرد لهم الصاع صاعين شعرا وهجاء وتقدا (١) .

ولقد رماه كثير من الرواة باللؤم والدهاء ، ولو صحت هذه التهمة لاصطنع ابن الزيات الحيلة فيما عامل به أولياء العهد أيام المعتصم والواثق ، ولدبر أمر مستقبله حين يتول الأمر الى هؤلاء ، ويصبح فى مقدرتهم الانتقام منه ، ولكنه نهج نهج السياسى المستقيم الذى لا يعنيه الا مصلحة الدولة ، دون أن يلقى بالا الى مصلحته فى قابل الأيام كما ذكرنا من قبل ، هذا عن اللؤم ، أما عن الدهاء فما كان لسياسى كبير كابن الزيات أن يعاب على دهائه وهو صفة سياسى .

وكان ابن الزيات فى غاية الوفاء لأصدقائه ، مالم يعبثوا بمصالح الدولة ، يحسن الظن بهم ويجمل القالة فيهم عند الخلفاء ، ويشيد بهم فى مجالسهم ، فقد روى صاحب الأغانى (٢) عن عبد الله بن العباس الربيعى قال :

« دخل محمد بن الملك الزيات على الواثق وأنا بين يديه أغنيه وقد استغناني صوتا فاستحسنه ، فقال له محمد بن عبد الملك هذا والله يا أمير المؤمنين أولى الناس بإقبالك عليه ، واستحسنك له ، واصطناعك اياه . فقال الواثق : أجل هو ذلك . فقال محمد

(١) جاء فى أمراء البيان ج ١ وكان ابن الزيات على علمه وادبه وكونه واحدا فى صناعته مفردا فى براعته لا يخلو من لؤم أحيانا .

(٢) الاغانى ج ٩

ابن عبد الملك الزيات : ما جمع أحد ما جمعه عبد الله من ظرف وأدب وصحة عقل وجودة شعر . فقال الواثق : صدقت يا محمد . فلما كان الغد جئت محمد بن عبد الملك شاكرًا فقلت له في أضعاف كلامي - وأفرط الوزير أعزه الله في وصفى وتقرىظى بكل شيء ، حتى وصفنى عند الخليفة بجودة الشعر ، وليس ذلك عندي ، وإنما أنا أعبت بالبيتين والثلاثة ، ولو كان عندي شيء بعد ذلك لصغر عن أن يصفه الوزير ، ومجله في هذا الباب المحل الرفيع المشهور - فقال ابن الزيات : والله يا أخى لو عرفت مقدار شعرك وقولك .

يا شادانا رام اذ مر فى السعائين قتلى
يقول لى كيف أصبح ت كيف يصبح مثلى
لما قلت هذا القول . والله لو لم يكن لك شعر فى عمرك كله
الا قولك (كيف يصبح مثلى) لكنت شاعرا مجيدا ، أنت والله أعزك
الله - أغزل الناس ، وأرقهم شعرا .

ومن العجيب ان هذا الرجل الذى يحسن الوزير فيه القالة ويمدحه أمام الخليفة بأجمل النعوت ، يقول فيه ابن الزيات نفسه :
« كان عبد الله بن العباس الربيعى مصطحبا دهره ، لا يفوته ذلك إلا فى يوم جمعة أو صوم رمضان وكان يكثر المدح للصباح ، ويقول الشعر فيه ، ويعنى فيما يقوله ، ومن ذلك قوله : »

ومستطيل على الصهباء باكرها
فى فتية باصطباح الراح حذاق
فكل شئ رآه خاله قدحا
وكل شخص رآه خاله الساقى.

ومع ذلك يشيد الوزير به وبشعره وعقله أمام الواثق وفاء
لحق الصداقة التى تجمع بينهما .

غير أن هناك خلّة فى وزيرنا تنقد من أجلها مراجيل غضبه،
وتضطرم كوامن حقدّه ، تلك هى أن يمس فى مكاتته الأدبية ، أو
ينتقص من قدره منتقص فيعيب عليه أسلوبه وأدبه . يروى أن
عبد الله بن الحسن الأصبهاني كان يخلف عمرو بن مسعدة على
ديوان الرسائل ، كتب الى خالد بن يزيد بن مزيد « ان المعتصم
امير المؤمنين ينفخ منك فى غير فحم ، ويخاطب امرأ غير ذى فهم
فقال محمد بن عبد الملك الزيات هذا كلام ساقط سخيف ، جعل
أمير المؤمنين ينفخ بالزق كأنه حداد ، وأبطل الكتاب . ثم كتب
محمد بن عبد الملك بعد ذلك كتابا الى عبد الله بن طاهر ، فقال
فيه : وأنت تجسرى أمرك على الأربح فالأربح ، والأرجح
فالأرجح ، لا تسعى بنقصان ، ولا تميل برجحان .
فقال عبد الله بن الحسن الأصبهاني : الحمد لله ، فقد
أظهر من سخافة اللفظ ما دل على رجوعه الى صناعته
من التجارة ، بذكره ربح السلع ، ورجحان الميزان ، ونقصان
الكيل والخسران من رأس المال . فضحك المعتصم ، وقال : ما أسرع

ما انتصف الاصبهاني من محمد . ولكن ابن الزيات حفظها لعبدالله
ابن الحسن الاصبهاني ، وظل يحقد عليه حتى نكبه .

ومع كثرة مشاغل ابن الزيات في الحكم الا أن هذه المشاغل لم
تله عن الفن والأدب والعلم ، فكان مجلسه حافلا بالعلماء والأدباء
والشعراء من كل لون ، وكان هو مناط الأمل ، ومعقد الرجاء لكل
هؤلاء جميعا ، وعلى رأسهم الجاحظ ودعبل الخزاعي وأبو تمام
والبحتري والحسن بن وهب وأضرابهم من كبار الكتاب والشعراء ،
وكانت صلته لكل هؤلاء موفورة ، وجوائز غامرة ، لأنها صلة
الفنان للفنان ، وجائزة الأديب للأديب ، فلا غرو أن قصده الشعراء
يمدحونه بأروع آيات البيان ، واتفعه الكتاب يسطرون في
مآثره أبلغ ما كتبوا ، وسنتكلم عن روائع ما قيل في ابن الزيات
حين نتكلم عن الصلة بينه وبين أدباء عصره .

أما صلته بالعلماء فقد اشد بها صاحب كتاب أمراء البيان (١)
حيث يقول : « وكان لابن الزيات عطف خاص على العلماء ، وقد
ترجموا له كتباً مهمة في الطب وغيره ، ومنهم حنين بن اسحق ، نقل
له بعض الكتب الى العربية ، وكان الجاحظ منقطعاً اليه ، قال
ابن أبي أصيبعة : وكان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ في كل شهر
ألفي دينار ، ونقل باسمه عدة كتب ، وكان أيضاً مما نقلت له
الكتب اليونانية ، وترجمت باسمه جماعة من أكابر الأطباء : مثل

(١) أمراء البيان ج ١

يوحنا بن ماسويه ، وجبرائيل بن بختشيوخ ، وبختشيوخ بن
جبرائيل بن بختشيوخ ، وداود ابن سراييون ، وسلمون بن نبان،
واسرائيل بن زكريا بن الطيفورى ، وحبيش بن الحسن .. وقد
أهدى الجاحظ كتاب الحيوان الى محمد بن عبد الملك الزيات
فأعطاه خمسة آلاف دينار ،

وهذا دليل على أن ابن الزيات كان يحيا حياة علمية خصية ،
فكان يصدق المال على العلماء والنقلة والنساخ بغير حساب ، ويصلهم
بمدد غير مقطوع ولا ممنوع ، فهو ابن عصره دون جدال ، ذلك
العصر الذى ازدهر بالحضارات والثقافة والمعرفة ، فلم يشأ أن
يكون متخلفا عن زمانه ، أو بعيدا عن تيارات الثقافة فيه ، لأنه
وهو الوزير الحريص على أموال الدولة كان يؤمن فى قرارة نفسه
بأن المال يجب أن يبذل فى هذا السبيل ، لأنه عائد على أمته ،
وممهدها طريق الازدهار والحضارة والرقى ، وان المشاركة
فى الحياة العلمية ، ودفع عجلتها الى الأمام فرض على الزعماء
والقادة وضريبة على القادرين . من أجل هذا دفع الى صديقه
الجاحظ خمسة آلاف دينار حين ألف كتاب الحيوان وأهداه اليه
وهذا شبيه بما تقوم به الدول المتحضرة اليوم من منح بعض علمائها
الجوائز التقديرية والمالية ، تكريما لهم ، واعترافا بفضلهم على
أمتهم ، واشادة بجهودهم ، وهذا ينفى مارمى به من بخل .
وهناك ناحية انسانية فى حياة ابن الزيات عرف بها بين
مرءوسيه وهو فى الوزارة ، فكان كثير الحذب على من يعمل

تحت إشرافه من هؤلاء الموظفين والكتبة ، شديد العطف عليهم ،
يتفقدهم ، ويتقصى أحوالهم ، ويعودهم اذا مرضوا ، ويواسيهم
اذا فجعوا ، ويجاملهم فى أحزانهم وأفراحهم . مرض مرة كاتبه
الحسن بن وهب ، فتأخر ابن الزيات عن زيارته كما عوده ، فكتب
اليه الحسن بن وهب قصيدة منها :

أيهذا الوزير أيذك الله وأبقاك لى بقاء طويلا
اننى قد أقمت عشرا عيلا ماترى مرسلا الى رسولا
ألذنب ؟ فما علمت سوى الشكر قرينا لىتنى ودخيلا
أم ملالا ؟ فما علمت لك للصا حب مثلى على الزمان ملولا

فأجابه ابن الزيات على عتابه باعتذار يدل على رقة الطبع ،
ووفاء النفس ، وصفاء القلب ، حتى مع كاتب من كتبه . فقال :
دفع الله عنك نائبة الدهر سر وحاشاك أن تكون عيلا
أشهد الله ما علمت وماذا لك من العذر جائزا مقبولا
ولعمري أن لو علمت فلازمت لك حولا لكان عندى قليلا
فاجعلن لى الى التعلق بالعذ و سبيلا ان لم أجد لى سبيلا
فقدىما ما جاد بالصفح والعف و وما سامح الخليل الخليلا
أرأيت هذا الشعر الذى يترجم عن أجمل عاطفة انسانية ،
تفيض بها نفس انسان - بل نفس وزير يسلا اسماع الزمان -
وهل هناك علاقة أصفى وأرق من هذه العلاقة بين رئيس ومرءوس .. ؟
علاقة تشعرك بامتزاج الأرواح ، وزوال الفوارق ، وأخوة العمل
المشترك . مما سنفضله فى علاقة ابن الزيات بشعراء عصره .

بقيت مسألة تحتاج الى أن نسلط على جوانبها بعض الضوء
فى حياة ابن الزيات لتكشف لنا معالمها ، وتتضح أبعادها . وهى
كيف كان ابن الزيات يقضى أوقات فراغه - وهو فى الوزارة -
فى عصر يفيض بألوان الترف ، ويمتلئ بمغريات الحياة ؟ هل ظل
كما كان فى أيام شبابه - قبل أن يكون رجلا مسئولا - يغشى
مجالس اللهو والشراب مع الشعراء والقيان والمطربين ، كما كان
يغشى فى نفس الوقت مجالس العلماء والأدباء ، ليستوفى حظه
من المتعتين ، أو ابتداء بعد توليه الوزارة يتحفظ فى لهوه ، ويقتصد
فى متعته ، وباتت تلهيه مشاغل الحكم عن مطالب الجسد ؟؟

لقد ذكرت مصادر التاريخ أن ابن الزيات فى أيام وزارته كان
معنيا بتعظيم مظاهر الخلافة ، مهتما بما يضافى على مناصب الدولة
سمة الوقار والمهابة ، ومن هذه المناصب - ومن أولها - منصب
الوزير ، ولذلك عنى ابن الزيات بأن يضع لهذا المنصب تقليدا
جديدا ، وزيا مميزا كما ذكرنا ، وتقول بعض المصادر (١) « ان
ابن الزيات كان يراعى عواطف العوام ، ويحاذر مما يهيجهم ،
ويقول : ارجاف العوام مقدمة الأحداث . » وليس مما يهيج
عواطف العوام ويمأ نفوسهم مرارة مثل عبث الحكام ومجونهم
وامعائهم فى الخلاعة والفسق ، وهم الأمناء على مصالح الرعية ،
وتزداد المرارة شدة كلما تظاهر الحاكم بعبثه ومجاتته أمام أعين

(١) امراء البيان ج ١

المحكومين ، حتى تشيع فيه حالة السوء ، يغمز من جوانبه بالتندر والسخرية . ولذلك كان ابن الزيات حريصا - منذ ولى الوزارة على ألا يطلع الناس الا على الجانب الجاد من حياته ، أما ساعات صفوه وأوقات متعته فكانت بمعزل عن أعين الرقباء والفضوليين يتخير لها من الأماكن والاقوات مالا ترتقى اليه الظنون .

ومع ذلك هل كان ابن الزيات دائما بمعزل عن مجالس الطرب والغناء التى كان يقيمها الخلفاء فى قصورهم ، ويدعون اليها ندماءهم ومن يشاءون من خاصتهم ؟ يشربون ويطربون ويلهون ؟ وهل كان ما يصطنعه من الوقار والجدي يمنع من تلبية دعوة الخليفة اذا دعاه ؟ اننا نجد ابن الزيات كثيرا ما يدعى الى مجلس الواثق فيلبى دعوة الخليفة ، ويشارك سيده الشراب والطرب والنشوة . وفيما رواه صاحب (١) الأغاني . عن قصة فريدة المغنية ما يشبع فضولنا من هذه الناحية . وفريدة هى الجارية المفضلة فى بلاط الواثق ، والتى لايسمح لها بالغناء والانشاد الا فى حضرة أخصائه ومريديه . وقد ذكر الأغاني أن ابن الزيات سمع غناء فريدة فى مجلس الواثق وأن نفسه تعلقت بغناء هذه الجارية الفاتنة ، وأنه كان يطرب لأدائها البارع فى الغناء واللحن ، حتى انه كان يحرص على حضور مجلس الواثق كلما دعاه ليسمع غناء فريدة ، ويستخفه الطرب كلما غردت بصوتها الأسر الجميل . ولقد احتلت فريدة فى

نفس ابن الزيات مكانة لا تقل عن مكانتها في نفس الوراق ، ولقد سمعها يوما تغنى لأبى العتاهبة :

أخلأى بى شجو وليس بكم شجوا
وكل امرء مما يصاحبه خلوا
أذاب الهوى لحمى وجسمى ومفصلى
فلم يبق الا الروح والجسد النضو

قصاح ابن الزيات ما سمعت قبله ولا بعده غناء أحسن منه !!
وفريدة هذه التى فتن بها ابن الزيات ، وشغف بها الوراق الى أبعد حد ، كانت من جوارى عمرو بن بانة ، ربيت عنده مع صاحبة لها اسمها « خل » وكانت حسنة الوجه ، حسنة الغناء ، حادة الفطنة والفهم ، ثم أهداها عمرو بن بانة للوراق ، فاحتلت فى قلبه مكانة لم تتح لسواها من القيان ، حتى ان الوراق كاد يجن بها شغفا ، وتصور لك قصتها فى الأغاني هذه المكانة التى كانت لها فى قلب الوراق ، كما تصور جانباً من شخصيتها العظيمة التى افتنن بها ابن الزيات ، كما افتنن بأدائها وألحانها .

ولو كان ابن الزيات متبذلاً فى شهواته ، منغمساً فى ملاده ، لاتهن خصومه - على كثرتهم - هذا الاسفاف وتناولوه بهجائهم ونقدهم ، ولو وجدوا فى تاريخ حكمه مغزاً من أى ناحية ماسكتوا عن ذلك على كثرة ما قالوا فى هجائه ، ولذلك يقول الدكتور جميل سعيد فى مقدمة ديوانه : « والذى يبدو لنا من شعره أنه قام بأعباء الوزارة قياماً لم يدع فيه مطعناً لأعدائه ، نرى

الشعراء حين يهجونه لا يجدون أكثر من أن يعيروه بأنه تاجر ،
وأنه ابن زيات ، وما الى هذا . يقول على بن جبلة معرضا به :
يا بائع الزيت عرج غير مرموق لتشغلن عن الأرطال والسوق
ويقول آخر :

هذا وأنت ابن زيات تصغرنا فكيف لو كنت يا هذا ابن عطار
وكان ابن الزيات يرد على الشعراء بشعره — لا يسلطانه —
وتجد هذا يدور في ديوانه .

هذا هو ابن الزيات — الذى ملأ الدنيا وشغل الناس — عاش
في وزارته ملء السمع والبصر ، قوى الشكيمة فى الحق ، شديد
البطش بالمنحرفين والمفسدين ، معتزا بكرامته ، معتدا بشخصيته ،
لا تلين قناته لعامز ، ولا تأخذه فى الحق لومة لائم ، ولا يتملق
كبيرا ولا أميرا ، يرى ان الحكم لا يستقيم الا بالحزم المزوج
بالحلم ، ولا يصلح الا بالشدة المشوبة بالعطف : فالحزم والشدة
لمن يستحق المعاقبة ، والحلم والعطف للمظلوم والمهضوم وصاحب
الحاجة ، ولذلك تحير فيه مؤرخوه ، تناقضت الأقوال فيه ،
وذهبت فيه الظنون كل مذهب . مع أن جماع القول فيه أنه المثل
الأعلى للحاكم الحازم ، الحريص على سمعة الدولة ومالها وكرامتها
والحنفى بالعلماء ، الوفى للأصدقاء ، الذى امتزجت فيه شخصية
الفنان بالحاكم ، فكان طرازا فريدا فى الحاكمين ، قل أن يوجد
الزمان بمثله .

الفصل الرابع مكانته الأدبية.

لم يترك محمد بن عبد الملك الزيات - منذ أعرض عن حرفة الآباء والاجداد - سبيلا للاستزادة من المعرفة الا سلكه ، ولا بابا ينفذ منه بصيص من العلم الاطرقة ، ولا علما من أعلام اللغة والأدب الا حج اليه ، يسعى فى رحابه ، وينهل من فيض معارفه ولا موطنا يدينه من الشهرة ، ويقربه من المجد الا طار اليه ، ولا فرصة تزيد من ثقافته الا اهتبلها وحرص عليها - ومنذ استبان لابن الزيات هدفه ، ووضحت له جادة الطريق ، وتعلقت رغائبه بخدمة البلاط ، وهو دائب السعى لأن يكون أهلا للمركز الذى يصبو اليه ويتعشقه ، وأن يكون فيه المفرد العلم الذى تدركه البصائر ، ولا تخطئه الأبصار .

ولما جاءتة الوزارة تسعى فى عهد المعتصم كان الرجل قد استوفى حظه من العلم باللغة والأدب ، واستوى شاعرا مرموقا من شعراء ذلك العهد ، وكاتبا كبيرا من كتابه ، وعلما من أعلام اللغة والنحو ، تتناول اليه الأعناق ، ويقصده الباحثون عن غريب النحو واللغة .

ولقد رأينا — فيما سبق — ماذا قال أبو عثمان المازني حين قدم بغداد عن محمد بن عبد الملك الزيات، فلقد كان جلساء المازني وأصحابه يخوضون بين يديه في علم النحو، فإذا اختلفوا فيما يقع فيه شك، قال لهم المازني: ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب — يعني محمد بن الزيات — واسألوه واعرفوا جوابه، فيفعلون، فيصدر الجواب من قبله بالصواب الذي يرتضيه المازني، ويوقفهم عليه. هذا هو رأي المازني (١) فيه، وهو الذي انتهى إليه علم النحو في عصره، حتى لقب بشيخ النحاة، وكان أول من دون علم التصريف منفصلاً عن النحو، وكان قبل المازني شائعاً في أبوابه، وناهيك برأي شيخ النحاة في وزيرنا محمد بن عبد الملك الزيات، وهو رأي يدل على سعة اطلاع الوزير وغزارة علمه بالنحو واللغة وفي قصة سؤال المعتصم عن الكلا، — التي رويناهما فيما سبق — والتي كانت سبباً في بزوغ نجمه ما يؤيد رأي المازني فيه. وشبيه بقصة الكلا ما روى من أن المعتصم سأل مرة جماعة من جلسائه وخاصة من الأدباء والعلماء عن سبب تسمية طاهر بن الحسين ذا اليمينين، فلم يجر أحد منهم جواباً، فصرخ المعتصم: على بابن الزيات، فلما حضر، سأله المعتصم في ذلك قال: إنه ذو الاستحقاقين، استحقاق ما لجده من رزق في مال الدولة، واستحقاق ماله في دولة المأمون.

(١) توفي سنة ٢٤٦ هـ

والمصادر التي بين أيدينا تجمع كلها على ما كان يتمتع به ابن الزيات من مكانة أدبية كبيرة بين أدباء هذا العصر وشعرائه وكتابه لا لأنه وزير الدولة وصاحب السلطان ، بل لأنه ابن الزيات الأديب الشاعر العالم . وما جلبت عليه الوزارة رفعة في القدر ، وعلو في المنزلة الأدبية — كما يظن الكثيرون — بل العكس كانت سببا في كثرة حاسديه وخصومه وسبيلا إلى النيل من مكانته الأدبية والخط من قدره على السنة أعدائه الكثيرين . وفي ذلك يقول صاحب كتاب أمراء البيان (١) : « ان اشتغال ابن الزيات بسياسة الدولة أضاع من مكانته الأدبية ، ودفع اليعقوبي (٢) والمسعودي (٣) — وهما المؤرخان القريبان من عهده — إلى أن ينتقضا قدره ، فما زاد على أن وصفاه بالكتابة والبلاغة ، كما يوصف آحاد الكتاب ، لا كما يوصف من كان واحدا في صناعته ، مفردا في براعته » . وانطلق لسان علي بن الجهم — يدفعه الحسد والحقد على الوزير — إلى التهجم عليه والخط من شأنه بقوله :

لعائن الله متابعات	مصبرات ومهجرات
على ابن عبد الملك الزيات	عرض شمل الملك للشقات
وأنفذ الأحكام جائرات	على كتاب الله ذاريات
وعن عقول الناس خارجات	يرمى الدواوين بتوقيعات
معقدات كرقى الحيات	سبحان من جل عن الصفات

(١) ج ١ .

(٢) توفي ٢٧٨ هـ .

(٣) توفي ٣٤٦ هـ .

بعد ركوب الطوف في الفرات وبعد بيع الزيت بالحبسات
صرت وزيراً شامخ الثبات هرون يابن سيد السادات
أما ترى الامور مهملات تشكو اليك عدم الكفاة

ولم يقتصر الامر على علي بن الجهم ، بل تعالت أصوات كثيرة
غير صوت بن الجهم ، تنوش ابن الزيات ، وعرض ابن الزيات من
كل جانب — على ماسياتى مفصلا عند الكلام على علاقته بشعراء
عصره .

ومع ذلك فلم تستطع مصادر التاريخ الأدبي أن تنكر على ابن
الزيات مكائته وقدره ، وما كان للحسد والحقد أن يطمسا الحقائق
التاريخية ، وان يهدما هذا الطود الشامخ ، أو ينالا من مكائته
الأدبية التي استحقها بذكائه ونبوغه وعلمه . فالمسعودي — رغم
حقده على ابن الزيات لاختلاف مذهبيهما (١) — لم ينكر عليه أنه
« كان كاتباً بليغاً ، وشاعراً مجيداً » . والمرزباني في معجم الشعراء
يقول : « ان محمد بن عبد الملك الزيات كان أديباً شاعراً » والخطيب
البغدادي يذكره في تاريخ بغداد (٢) بأنه « كان أديباً فاضلاً ، عالماً
بالنحو واللغة » ثم يروي عن ميمون بن هرون قصة المازني التي
سبق ذكرها ، ويقول : « وقد ذكره دعل الخزاعي في كتابه طبقات
الشعراء » ويقول ابن خلكان في وفيات الاعيان (٣) : « ولقد

(١) مروج الذهب ج ٤ ، كان المسعودي متشيعاً وابن الزيات جهمياً .

(٢) ج ٢

(٣) ج ٤

سمت بمحمد بن عبد الملك الزيات همته على ما يأتي ذكره ، وكان من أهل الأدب الظاهر ، والفضل الباهر ، أدبيا فاضلا بليغا عالما بالنحو واللغة .. ثم ذكر رواية ميمون بن هرون أيضا .

أما أبو الفرج فيقول في الأغاني (١) : « وكان محمد بن عبد الملك الزيات شاعرا مجيدا ، لا يقاس به أحد من الكتاب ، وإن كان ابراهيم بن العباس مثله في ذلك فإن ابراهيم مقل ، وصاحب قصار ومقطعات ، وكان محمد شاعرا يطيل فيجيد ، ويأتي بالقصار فيجيد ، وكان بليغا حسن اللفظ اذا تكلم ، واذا كتب . وأورد البغدادى فى خزنة (٢) الأدب « أن محمد بن عبد الملك الزيات كان من أهل الأدب ، فاضلا عالما بالنحو واللغة ... ثم أرود قصة المازنى » .

ووصفه الوزير ابراهيم بن المدير فقال : « ان محمد بن عبد الملك الزيات من أطف الناس ذهنا ، وأرقهم طبعاً ، وأصدقهم حساً ، وأرشقهم قلماً ، وأملحهم إشارة ، اذا قال أصاب ، واذا كتب أبلغ ، واذا شعر أحسن ، واذا اختصر أغنى عن الإطالة » .

وهذا عبد الله بن العباس الريبعى يشيد بمكانة ابن الزيات فى الأدب - حين أحسن الوزير الرأى فى عبد الله أمام الواقى كما مر - فيقول لابن الزيات : « وقد أفرط الوزير

(١) ج ٢٠ .

(٢) ج ١ .

— أعزه الله — فى وصفى وتقريظى بكل شىء حتى وصفنى
بجودة الشعر ، وليس ذلك عندى ، وإنما أنا أعبت بالبيتين
والثلاثة ، ولو كان عندى أيضا شىء من ذلك لصغر عن أن يصفه
الوزير ، ومحلّه فى هذا الباب المحل الرفيع المشهور .

ولقد سبق أن الفضل بن مروان لما كان وزيرا للمعتصم حاول أن
يسقط محمد بن عبد الملك الزيات ، وأن يعده عن قصر الخلافة ،
لأنه كان يتفرس فيه الذكاء النادر والعلم ، ولا يجب أن يشاهده
فى دار الخلافة ، ولا أن يخالط أهلها ، ويعرف اسمه ورسمه ،
فأبت الأقدار إلا رفعه ، ولذلك يقول (١) الطبرى : : ان الفضل
ابن مروان كان ينكر على ابن الزيات أن يلبس دراعة سوداء
وسيفا بحمائل ، ويقول له فيما يقول : إنما أنت تاجر فمالك
وللسواد والسيف ؟ وقد ذكرنا أن الواثق حين تولى الخلافة ،
طلب الى الكتاب جميعا أن يكتبوا بين يديه عهدا الى الأمصار
بتولية الخلافة ، فعجز الكتاب ، ولم يرض الواثق بما كتب
بعضهم ، فاضطر الى الالتجاء الى ابن الزيات — رغم غضبه
عليه — فكتب بين يديه ما ارتضاه وأقره ، ونجا بذلك من غضب
الواثق ، بل قلده الوزارة ، وأدنى مكاتته . وروى صاحب (٢)
الأغانى عن محمد بن الفضل الأسود الكاتب ، قال حدثنى
ابن قريش بن أنس عن أبيه قال : دخلت على الواثق فقال لى :

(١) ج ١٠ .

(٢) ج ١ .

يا أبا قرش ، أخرج رقعة من تحت المصلى ، فمددت يدي ،
فأخرجت الرقعة ، وقرأتها وقلت : يا أمير المؤمنين ، رقعة حسنة
أولها تشوق ، وأوسطها استعتاب ، وآخرها استبطاء ، وإذا آخر
الرقعة :

ان يكن جيلك من جيلي وهى
فالى شوقى يكون المنتهى
لم يذكرنيك خطي حادث
انما يذكر من كان سها

وكانت الرقعة من محمد بن عبد الملك الزيات . فقال الواثق :
هذا هو ابن الزيات الذى يلومنى الناس على جبهه . ومن أجل
هذه المكانة التى كان يحتلها ابن الزيات فى نفس الواثق لأدبه
وعلمه ومعرفته أصدر الواثق أمرا بالآ يرى أحد من الناس محمد
ابن عبد الملك الزيات الا قام له ؛ اجلالا وتعظيما لمكاته ، وكان
أمر الواثق مشار كثير من المشاكل بين ابن الزيات وبين القاضى
أحمد بن أبى دواد على ما سيأتى تفصيله ، ومن أجل هذه المكانة
أيضا كان محمد بن عبد الملك الزيات هو الوزير الوحيد الذى
يعقد للولاية فى دار الخلافة ، فقد روى أنه عقد لاسحق
ابن ابراهيم بن أبى خميسة مولى بنى قشير على اليمامة والبحرين
وطريق مكة مما يلى البصرة فى دار الخلافة ، ولم يذكر التاريخ
أن أحدا عقد لأحد فى دار الخلافة الا الخليفة غير محمد
ابن عبد الملك الزيات .

وهذا رأى عميد الكتاب فى عصر ابن الزيات ، وهو رأى دار فى أغلب كتب الأدب ، لأنه رأى الجاحظ . فقد روى ابن رشيق فى عمدته عن الجاحظ قوله فى ابن الزيات وكاتبه الحسن بن وهب ما يأتى : « طلبت علم الشعر عند الأصمعى فوجدته لا يحسن الا غريبه ، فرجعت الى الأخفش فوجدته لا يتقن الا اعرابه ، فعطفت على أبى عبيدة فوجدته لا ينقل الا ما اتصل بالأخبار ، وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر بما أردت الا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ، ومحمد بن عبد الملك الزيات » وعلق صاحب على كلام الجاحظ بقوله : « فله أبو عثمان ! لقد غاص على سر الشعر ، واستخرج أرق من السحر » ثم عقب ابن رشيق على هذا بقوله : « وسأذكر من أشعار الكتاب قطعة يظهر فيها مرماهم ، ويستدل على مغزاهم ، ويعرف حسن اختيار الجاحظ فيما ذهب اليه من تفضيلهم ، ويشهد لى بجودة الميز ، وفرط الثبوت والانصاف ، ان شاء الله تعالى .. واختار ابن رشيق وأحسن الاختيار ، وعقب على اختياره بقوله : ولو حاولت أن أذكر من علمت من شعراء الكتاب سوى من ذكرت لبعد الأمد ، وطالت الشقة ، واحتجت الى أن أقيم لهذا الفن ديوانا مفردا ، لكننى عولت على ابن الزيات وابن وهب ، لاحالة الجاحظ فى الفضل عليهما . »

فهناك - كما قلنا - اجماع على أن ابن الزيات كان كاتباً شاعراً أدبياً عالماً .. وكان فوق ذلك بليغاً حسن اللفظ اذا تكلم

وإذا كتب كما يقول الأغاني ، وكان إذا كتب أبلغ ، وإذا شعر
أحسن ، وإذا اختصر أغنى عن الإطالة كما يقول إبراهيم بن المدبر ،
وكان يتمتع في عصره بمكانة أدبية مرموقة ، جعلته مناط الأمل
لكثير من كبار الشعراء والكتاب .

على أن هناك مسألة تستحق أن نقف عندها طويلا .. وهي
تلك القصائد التي قالها الشاعران الكبيران أبو تمام والبحتري
يمدحان فيها محمد بن عبد الملك الزيات ، فهما يشيدان في هذه
المدائح ببلاغة الوزير وقوة قلمه ، وبراعة نثره ، دون أن يشيرا
في مدائحهما الى الاشادة بشاعريته ، فيقول أبو تمام :

لك القلم الأعلى الذي بشيئاته
ينال من الأمر الكلي والمفاصل
لعاب الأفاعى القاتلات لعبه
وأرى الجنى اشتارته أيد عواسل

ويقول البحتري :

قد تفننت في الكتابة حتى
عطل الناس فن عبد الحميد
في نظام من البلاغة ما
شك امرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا
حك في رونق الربيع الجديد

مشرق في جوانب السمع ما يخ
سلقه عوده على المستعيد
ما أعيرت منه بطون القراطيب
س وما حملت ظهور البريد

ثم يمضى الشاعران بعد وصف قلمه وبلاغته التى عطلت ثرى
عبد الحميد وفنه فى مدح الوزير بحسن السياسة والدهاء ،
ومعالجة المشكلات بالحزم على ما سيأتى مفصلاً فى علاقة ابن
الزيات بالشاعرين . فكأن شاعرية ابن الزيات التى أجمعت عليها
مصادر التاريخ الأدبى لم تكن تستحق من الشاعرين الكبيرين
تسجيلاً ، كما استحق المدح منهما بنشره وبلاغته وسياسته ،
أ يرجع ذلك الى أن ابن الزيات قد طغى ثره على شعره ، وأزرى
به ، فاحتل الصدارة بين كتاب عصره ، ولم يبلغ بشعره شأواً
شعراء ذلك العصر ، أم لأن الوزارة من مستلزماتها الكتابة
والبلاغة ، دون أن يكون الشعر من مستلزماتها ؟ أم لأن الشاعرين
كانا ينظران الى شعر ابن الزيات بمقياس شاعريتهما ، فوجداه
دون مرتبتهما قصيدا وشعرا ؟؟ اننا نرجح أن الشاعرين مدحا فى
ابن الزيات بالصفة التى تغلب على وزراء ذلك العهد وهى صفة
الكتابة ، فقد اشتهر أسلافه فى هذا المنصب بما كانوا يحسنونه
من الكتابة بين يدى الخليفة ، حتى جاء ابن الزيات فلم يقل عن
أسلافه شأواً فى هذا المضمار ، فجاءت مدائح الشاعرين الكبيرين
لابن الزيات بالصفة التى يشرف بها الوزير ، ويعلو بها قدره فى

نظر الخلفاء دون أن يتعرضوا في مديحهما لشاعرتيه التي أجمعت عليها مصادر التاريخ الأدبي .

بقى بعد ذلك رأى الجاحظ في شعر محمد بن عبد الملك الزيات وزميله - أو كاتبه - الحسن بن وهب ، وهو رأى قاطع في أن الجاحظ لم يظفر بعلم الشعر إلا عند هذين الكاتين ، فهل كان الجاحظ مصيبا في هذا الحكم الذي أصدره على شعر ابن الزيات ؟ دون أن يتعرض لمكاته الأدبية في الكتاية والنثر ؟؟ اننا نخشى أن يكون للعلاقة الشخصية بين هذين الكاتين وبين الجاحظ أثر في صدور هذا الحكم ، فالمعروف ان الجاحظ كان أثيرا لدى ابن الزيات ، وملازما له - كما سيأتي الكلام على ذلك - وأن صلات ابن الزيات وابن وهب لم تنقطع عن الجاحظ طول إقامته ببغداد ، ولكن يبقى بعد ذلك سؤال ، لماذا لم تدفع هذه العلاقة الشخصية بالجاحظ التي التنويه بمكاتهما بين الكتاب - ومحلها فيها لا ينكر - كما نوه بذلك الشاعران الكبيران أبو تمام والبحترى في مدائحهما لابن الزيات دون أن يتعرضا لمدحه بما قال من شعر .؟ ولماذا يحكم الجاحظ هذا الحكم على ابن الزيات وابن وهب في عصر امتلا بكبار الشعراء ، وامتاز بفحولهم ، من أمثال مسلم بن الوليد (٢٠٩ هـ) وأبي العتاهية (٢١١ هـ) وأبي تمام (٢٣٢ هـ) ودعبل الخزاعي (٣٤٦ هـ) وعلى بن الجهم (٢٤٩ هـ) والبحترى (٢٨٤ هـ) وغيرهم ممن كانوا يعاصرون ابن الزيات ، وكانوا أكبر منه مكانة في الشعر ،

وأرسخ قدما دون مرأ ؟؟ هناك احد احتمالين : اما أن يكون الجاحظ قد اعترف لصديقه ابن الزيات بالامتياز فى الشعر لأن امتيازاه فى الكتابة أمر مفروغ منه ، ولذلك ولى الوزارة لأنه كان من كبار الكتاب ، واما لأن الجاحظ بوصفه كبير كتاب عصره ، وأحد المجددين فى أسلوب الكتابة ، لم يكن يرى من بين فرسان الكتابة من يدانيه ، أو يصل الى مكاتته ، فسلك ابن الزيات فى عداد الشعراء ، واعترف له بالسبق فى هذا المضمار ، أما الكتابة فهو فارسها المعلم ، وزعيمها الذى يدين له الكتاب بالأسبقية والفضل . ومنع ترجيحنا للاحتمال الأول فقد يجوز أن يكون الجاحظ قد عنى بقوله « علم الشعر » نقد الشعر ومعرفة غته من ثمينه ، والحكم عليه بالجودة أو الرداءة ، ويدعم هذا الفرض أن ابن الزيات يمتاز من هذه الناحية بذوق أدبى فى نقد الشعر ، والحرص على ألا يسمع من الشعر الا أجوده ، حكى صاحب (١) الأغاني « ان الشعراء اجتمعوا يوما على باب المعتصم ، فبعث اليهم محمد بن عبد الملك الزيات ، ان أمير المؤمنين يقول لكم : من كان منكم يحسن أن يقول مثل قولى النمرى (٢) فى الرشيد :

خليفة الله أن الجود أودية
أحلك الله منها حيث تجتمع

(١) ج ٢٠

(٢) منصور النمرى شاعر عربى أصله من الجزيرة ، وقدمه البرامكة للرشيد

فقال فى مدحه شعرا كثيرا

من لم يكن بأمين الله معتصماً
فليس بالصلوات الخمس يتنفع
ان أخلف القطر لم تخلف مخايله
أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع
فليدخل ، والا فلينصرف . فقام محمد بن وهيب فقال : فينا
من يقول مثله ، فسأله محمد بن عبد الملك الزيات ، وأى شيء
قلت ؟ فقال :

ثلاثة تشرق الدنيا بيهجتهم
شمس الضحى وأبو اسحق والقمر
تحكى أفاعيله فى كل نائبة
الغيث والليث والصمصامة الذكر
فطرب ابن الزيات لشعره ، وأمر بإدخاله على المعتصم ،
وأحسن جائزته .

وقال أحد الرواة : « سمعت محمد بن عبد الملك الزيات
يقول : أشعر الناس طرا الذى يقول :
وما أبالى ، وخير القول أصدقه

حقنت لى ماء وجهى أو حقنت دمنى
فأحببت أن استثبت ابراهيم بن العباس ، وكان فى نفسى أعلم
من محمد وآدب ، فجلست اليه وكنت أجرى عنده مجرى
الولد ، فقلت له : من أشعر أهل زماننا هذا ؟ فقال الذى يقول :

مطر أبوك أبو أهلة وائل
 ملأ البسيطة عدة وعددا
 نسب كأن عليه من شمس الضحى
 نورا ومن فلق الصباح عمودا
 ورثوا الأبوّة والحظوظ فأصبحوا
 جمعوا جدودا فى العلى وجدودا
 فاتفقا على أن أبا تمام أشعر أهل زمانه . وما جاء هذا
 الاتفاق عفوا ، وإنما هو عن بصر بنقد الشعر ، وإدراك ذوقه
 يقنونه .

وبلغت ملكة النقد عند ابن الزيات انه كان يرد كل شيء الى
 مصدره من أقوال الشعراء ، حكى (١) ابن خلكان : «أن أبا حفص
 الكرماني - كاتب عمرو بن مسعدة - كتب الى محمد بن عبد
 الملك الزيات : أما بعد ، فانك ممن اذا غرس سقى غرسه ، واذا
 أسس بنى أسه ، ويجتنى ثمرة غرسه ، وبناءؤك فى ودى قد وهى
 وشارف الدروس ، وغرسك عندى قد عطش وأشفى على
 اليبوس ، فتدارك بناء ما أسست ، وسقى ما غرست . فقال
 ابن الزيات : مازاد الكرماني على أن نقل الى قول أبى نواس
 يمدح البرامكة :

ان البرامكة الكرام تعلموا
 فعل الجميل وعلموه الناس

كانوا اذا غرسوا سقوا واذا بنوا
لا يهدمون لما بنوه أساسا
واذا هم صنعوا الصنائع فى الورى
جعلوا لها طيب البقاء لباسا
فعلام تسقينى ، وأنت سقيتنى
كأس المودة ، من جفائك كأسا
ولما مدحه أبو تمام بقصيدته التى مطلعها :
ديحة سمحة القياد سكوب
مستغيث بها الثرى المكروب

قال له ابن الزيات : يا أبا تمام ، انك لتحلى شعرك من جواهر
لفظك ، وبديع معانيك ، ما يزيد حسنا على بهى الجواهر فى
أجباد الكواكب ، وما يدخر من جزيل المكافأة الا ويصغر عن
شعرك فى الموازنة . وهذا الرأى لا يصدر الا عن ناقد بصير
بفنون الشعر ، وما استحدثه أبو تمام فى الشعر العربى من ضروب
المحسنات اللفظية ، والعناية بها .

فاذا كان مارمى اليه الجاحظ من « علم الشعر » هو نقد
الشعر ، ومعرفة فتونه ، والبصر بأساليبه المختلفة ، فان الصواب
لم يجانبه فيما رمى اليه ، أما اذا كان رأيه أن مكانة ابن الزيات
وابن وهب فى عالم الشعر تزرى بمكانة الفحول من شعراء
عصرهما ، فاننا نستطيع الجاحظ فى مخالفته فى ذلك ،

ونستأذنه في أن نضع شعر ابن الزيات في ميزان النقد الأدبي
لنعرف مكانه بين الشعراء .

وقبل أن نرجع إلى ديوان محمد بن عبد الملك الزيات لدراسة
شعره نستعرض رأيين من آراء الأدباء في هذا الشعر ، أحد
الرأيين قديم ذكره صاحب الأغاني ، والآخر رأى الدكتور جميل
سعيد الذي أشرف على طبع ديوان ابن الزيات وجمعه ، وقد ذكر
هذا الرأي في المقدمة التي صدر بها الديوان .

أما الرأي الأول فقد ورد في (١) الأغاني « اجتمعت أنا
وهرون بن محمد بن عبد الملك الزيات وابن برد الخيار في مجلس
عبيد الله بن سليمان قيل وزارته ، فجعل هرون ينشد من أشعار
أبيه محاسنها ، ويفضلها ويقدمها ، فقال له ابن برد الخيار : إن
كان لأبيك مثل قول إبراهيم بن العباس :

أَسَدٌ ضَارَ إِذَا هِجَّتْهُ

وَأَبٌ بَرَّ إِذَا مَا قَسَدَا

يَعْرِفُ الْأَبْعَدُ إِنْ أَثَرِي وَلَا

يَعْرِفُ الْأَدْنَى إِذَا مَا اقْتَضَا

ومثل قوله :

تَلَجَّ السِّنُونُ يَوْتَهُمْ وَتَرَى لَهُم

عَنْ جَارِ بَيْتِهِمْ أَزْوَارَ مَنَّاكِبِ

(١) الأغاني ج ٥ .

وتراهم بسـيوفهم وشفـقارهم
مستشرفين لراغب أو راهب
حامين أو قارين حيث لقيتهم
نهب العفـاة ونهـزة للراغب

فاذكره وافخر به ، والافأقلل من الافتخار والتطاول بما لا طائل
فيه ، فـجـل هـرون .

فهذا رأى معاصر لابن الزيات ، وفي مقارنة بينه وبين أحد
شعراء الكتاب وهو ابراهيم بن العباس الصولى ، وقد استبان
من هذه المقارنة فضل ابراهيم بن العباس على ابن الزيات فى
الشعر ، وذلك فى رأى ناقد خبير كابن برد ، حتى ان هرون
ابن محمد بن عبد الملك أخجلته المقارنة ولم يحر جوابا .

وأما رأى الدكتور جميل سعيد الذى نشر ديوان الوزير
محمد بن عبد الملك الزيات وأشرف على نشره فهو : « وبعد ،
أفكان ابن الزيات من المكانة الشعرية بالمحل الذى ذكره به الجاحظ
والصاحب وابن رشيق ؟ ان اشعاره التى فى ديوانه هذا لانراها
تضعه فى مصاف الشعراء المطبوعين ، وقد لجج الهجاء بينه وبين
على بن جبلة ، والقارىء حين يقرؤه يجد الفرق واضحا بين ابن
الزيات ، وبين الشاعر المطبوع على بن جبلة ، على أننا نستطيع
أن نقول كما قال أبو الفرج : « كان محمد بن عبد الملك
الزيات شاعرا مجيدا ، لا يقاس به أحد من الكتاب » نعم ، نستطيع
أن نقول انه اشعر الكتاب ، كما قيل ان ابن دريد اشعر الشعراء ،

أما أن نسيه على الشعراء المطبوعين ، أمثال جرير وأبي نواس
 والبحترى ومن اليهم ، فذلك مانستكره عليه . على انى أشهد
 أن الرجل شاعر لا يبارى اذا هاجت عواطفه ، وان قصائده فى رثاء
 ام ابنه عمر تعد من أحر اشعار الرثاء وأصدقها . ومن هذا الذى
 لا يهتز لقوله :

يقول لى الخلان: لوزرت قبرها فقلت: وهل غير الفؤاد لها قبر؟
 على حين لم أحدث فاجهل قدرها ولم أبلغ السن التى معها الصبر
 أو لقوله فى نونيته المشهورة :

ألا من رأى الطفل المفارق أمه بعيد الكرى عيناه تنسكبان
 رأى كل أم وابنها غير أمه يبتان تحت الليل ينتجيان
 وبات وحيدا فى الفراش تجنه بلابل قلب دائم الخفقان
 فلا تلحيانى ان بكيت فانما أداوى بهذا الدمع ما تريان

واذا كان من المعروف أن كثيرا من شعراء العربية يجيدون
 اللعب على وتر واحد من أوتار العواطف ، فلا خطل مثلا يجيد مدح
 الملوك ، وأبو نواس يجيد اذا قال فى الخمر ، وأبو العتاهية يجيد
 فى الزهد .. اذا كان المعروف هذا ، فاننا نستطيع أن نقول : ان ابن
 الزيات شاعر لا يجارى حين يقول فى الرثاء ، وما يتصل به من
 المعانى الحزينة ، ونحن بهذا نقر ماجاء من الثناء على شاعريته ، كيف
 لا وهو القائل :

ألم تعجب لكتب حزين خدين صباية وحليف صبر
 يقول اذا سألت به : بخير وكيف يكون مهجور بخير؟

واشعاره الوجدانية كلها من هذا الجيد ، الذى يظهر فيه
الصدق الأدبى ، وتنضح عواطفه الحزينة على القارئ فيشارك
ابن الزيات شعوره الحزين الذى نظم به شعره .

هذا هو رأى ناشر الديوان فى شعر ابن الزيات ، وهو أقرب
ما يكون الى الصواب اذا استعرضت اشعار الشاعر التى وردت
فى ديوانه كما سيتضح ذلك . والديوان الذى بايدينا والذى حققه
الدكتور جميل سعيد ونشره بمعاونة وزارة المعارف العراقية
يقع فى نحو مائة صفحة ، وهو منقول عن نسخة خطية عشر عليها
الناشر فى مكتبة تيمور باشا بدار الكتب المصرية . ويذكر الناشر
مابذله من جهد فى تحقيق هذا الديوان اذ يقول : « قد بادرت
الى نسخ هذه النسخة الخطية ، فاذا هى قد حشيت بالأغلاط
حشوا ، وزاد فى عسر الاهتداء الى الصواب منها ، اننى كنت أقرأ
فلا أدري أين موطن التصحيف والخطأ ، لأن الكاتب قد رسم
الحروف واضحة حتى لم يدع مجالا لشك القارئ فى كلمة بذاتها
وهكذا رأيت هذه الكتابة الجميلة الواضحة قد أشاكت طريق
الصواب على ، ولطالما تمثلت بيت ابى الطيب ، وأنا اجيل النظر
فى الفاظ البيت ، لأرى موطن التحريف والمسخ فيه ، وأعجب من
شدة الوضوح تكون شدة فى الغموض :

أخذ الجليد بها على مسالكى فكأنها لياضها سوداء
وعلمت بوجود نسخة أخرى بدار الكتب المصرية ، وطمعت أن
أقارن النسخة التى كتبتها عليها ، وحصلت - وأنا فى بغداد - على

نسخة مصورة منها ، فاذا هي صورة حرفية للنسخة التي عندي ،
وكان الناسخ قد كتب نسختين ، دفع احدهما الى دار الكتب ،
ودفع الاخرى الى مكتبة تيمور ياشا . على أنى لم أياس من معرفة
النسخة القديمة التي أخذت عنها هاتان النسختان ، وقد بحث فيما
وقع يدي من فهارس أمهات المتاحف والمكتبات فى العالم ، وأسف
أن أقول اننى لم أهتد الى نسخة من ديوان ابن الزيات فيها ،
وترددت فى نشرها ، ثم رأيت نشرها وتحقيقها بما فى الطاقة والوسع
أفضل من بقاءها فى زوايا النسيان ، وقد اصلحت منها ما استطعت
وأشرت الى النص كما هو موجود فى الاصل ، وتركت ما لم أهتد
الى وجه فى اصلاحه على حاله ، عسى ان يكشف الزمن عن نسخة
أخرى من ديوان هذا الشاعر ، يهتدى بها الى مواطن الصواب
فى النسخة التى بين يدي القارىء . وأمر آخر فى النسخة اشير
اليه ، هو أن هذا الشعر لا يمثل حياة ابن الزيات كاملة ، وربما
كان له شعر غير هذا لم يجمعه جامع ، هذا من جهة ومن جهة
اخرى فانى وجدت بعض القصائد لم تنسجم أبياتها ، ويخيل الى
أنها سقطت منها أبيات احدثت هذا الخلل ، أو أنها قد أخل بترتيبها
وهذا ما نرجو أن يكشف عنه أيضا ، حين نعرض على نسخة قديمة
من ديوان هذا الشاعر .

ونحن نسيل الى ما ذكره الدكتور جميل سعيد من أن ماورد فى
الديوان لا يمثل كل ما قاله ابن الزيات من شعر فى حياته ، بدليل
اننا نجد فى الاغانى وغيره من كتب الأدب بعض أبيات متفرقة

ومنسوبة الى محمد بن عبد الملك الزيات ، ومع ذلك لم ترد في ديوانه الذي أشرف الدكتور جميل سعيد على تحقيقه ونشره ، مما يدل على أن لابن الزيات شعرا كثيرا لم يضمه هذا الديوان بين دفتيه ، كما أن هناك اختلافا كبيرا بين بعض قصائده في الديوان والتي روتها هذه المصادر .

ومع ذلك سنعتمد على هذا الديوان في نقد شعر ابن الزيات وتقييمه ، ومقارنته بشعراء عصره ، لنرى الى أى مدى يصدق حكم الجاحظ على شعر محمد بن عبد الملك الزيات .

لقد تناول ابن الزيات شعره كثيرا من الاغراض التي خاض فيها كثير من شعراء عصره ، أجاد في بعضها ، وأسف في بعضها الآخر ، ويبلغ ابن الزيات غاية الجودة حين ينبع الشعر من عاطفة جياشة تفيض بها نفسه ، أو يصدر عن انفعال نفسي بالفرس الذي يقول فيه ، فهو حين يحس الفجعة في فقد أم ولده ، ويتأثر بمنظر ابنه عمر ، وهو يبحث عن أمه في كل مكان فلا يجدها ، وينادى عليها فلا تجيب ، تهتاج شاعريته الى الحد الذي ينطلق شعره فيه زفرات متقدة ، ونفثات ملتهبة ، تبعث الأسى ، وتثير الشجن ، وقد اتخذ كثير من النقاد هذه القصيدة الحزينة مقياسا على شاعرية ابن الزيات ، وقوة عارضته في الشعر ، حتى عدوها من عيون قصائده ، وما ذلك الا لصدق العاطفة فيها ، وما سرى بين كلماتها من احساس عميق بالألم ، وشعور بالفجعة ، ومثل هذه القصيدة في الجودة وصدق الاحساس كل ما صدر عن ابن الزيات من

عاطفة حقيقية ، ونستطيع ان تبين ذلك فى كثير من مقطعاته التى
صدق بها الشاعر عن احساس صادق ، سواء أكان ذلك فى الرثاء
أم الغزل أم الخمریات أم السخرية أم الندم .

وقد قدمنا صورة من هذه النماذج عند الكلام على نشأته ،
ولا بأس من أن نورد بعض النماذج الأخرى التى ننصف بها
شاعرية ابن الزيات قبل أن تتكلم عن ردى شعره . فهو فى غزله
الرقيق ، الصادر عن شعور صادق ، نراه قريبا من شعراء عصره ،
بل يفوقهم أحيانا فى بعض قصائده التى تمتاز بالحرارة والعمق
ووصف خلجات النفس ، ومن هذا النوع تلك القصيدة التى
ذكرناها عند الكلام على نشأته ، والتى مطلعها :

ألا من عذير النفس ممن يلومها على حبها جهلا . ألا عذيرها
وهى من عيون غزله ، وأرق قصائده . ومن آياتها التى لم
تذكر فيما سبق .

تذكرت أياما تولى سرورها فدر لعينى عند ذاك درورها
فبت كأنى بالنجوم موكل أقلب فيها مقلتى وأديرها
ومن غزله الرقيق قصيدته التى مطلعها :

لم يزدنى العذل الا ولما ضرنى أكثر مما نفعنا
ومن شعره الجيد فى وصف مجلس شراب :

انف بالخمر نعمة المخور واسق يحيى كبيرنا بالكبير
من سلاف تدبير طوقا من الدر عليها مفضلا بشذور

عمرت والزمان في حجر أم
لست في وصفها ببالغ شيء
فاذا الكاس أقبلت فبنوع
غير ان السلاف تبصره العين
فضلتها بالبر والتوقير
غير أني أقر بالتقصير
بين سلاف معتق وسرور
وهذا يرى بعين الضمير

وهذا الشعر مع مقطوعته التي سبق ذكرها في وصف الخمر
عند الكلام على نشأته يدينه من أفق ابى نواس ، ومسلم بن
الوليد في خمرياتهما ، ووصف مجالس الشراب ، وان كان التواضع
لم يلحق به في هذا الباب لاحق .

ويمتاز ابن الزيات بشعره الساخر الذي داعب به كثيرا من
أصدقائه وأخوانه مداعبة تدعو الى الضحك من هذه
الصور التي رسمها بريشته البارعة ، حتى اعتبره بعض
النقاد رائدا في هذه الناحية من الشعر ، واماما من أئمة السخرية،
وقد ارتاد هذا اللون من الشعر ابن الرومي الذي نبغ فيه من بعده،
فكان لابن الزيات فضل السبق في هذا النوع من الشعر ، وقد
سبق أن ذكرنا « أنفيات » عيسى بن زينب عند الحديث على نشأة
ابن الزيات ، وغيرها من الشعر الهزلي الذي يعتبر بحق رائده .

ولابن الزيات في الاخوانيات شعر جيد ، يضعه في مصاف
كبار الشعراء . ومن ذلك قوله في قصيدته التي بعث بها الى
الحسن بن وهب ، حين كتب اليه الحسن يستهديه بعض النيذ
وهو في بلاد الروم ، فأرسل اليه مع هذا الشعر ما طلب :

لم تلق مثلى صاحباً	أندى يدا وأعز جوداً
أسقى الصديق بمنزل	لم يرو فيه الماء عوداً
صهباء صافية كأ	ن على جوانبها العقوداً
فاذا استقل بشكرها	أوجبت بالشكر المزيداً
وأمن حيث أمن لا	حصراً بذاك ولا بليداً
واذا خشيت على الصن	يعة بالتقادم أن تبيداً
أنشأت ذكر صنيعتي	فرددتها غصاً جديداً
ومدحت نفسى مبدياً	بالقول فيها أو معيداً
خذا اليك كأنما	كسيت زجاجتها عقوداً
واجعل عليك بأن تقـ	وم بشكرها أبداً عهداً

وكذلك قصيدته التى أرسلها الى الحسن بن وهب يعتذر فيها
من عدم زيارته له فى مرضه - وقد مر ذكر بعضها عند الكلام
عن محمد بن عبد الملك الزيات فى وزارته - ومن أبياتها التى
لم تذكرها قوله :

انتى ارتجى وان لم يكن ما	كان مما نقت الا جليلاً
ان أكون الذى اذا أضمر الاخ	لاص لم يلتص عليه كفيلاً
ثم لا يذل المودعة حتى	يجعل الجهد دونها مبذولاً
فاذا قال كان ما قال اذكا	ن بعيداً من طبعه أن يقولاً

وله فى الزهد ابيات تدنيه من ابنى العتاهية فى زهده ، صدرت
عن فهم صحيح لهذه الحياة ، وادراك لتقلباتها المختلفة ، فهو يقول
فى ذلك عن تجربة وشعور بواقع الحياة . اسمع اليه حين
يقول :

وبت دار بعد عمرانها أضحت خلاء ما بها أهل
لم تدخل البهجة دار امرئ الا ويهدمها أسى داخل
ما يأمن الدنيا وأيامها بعدى الا أنوك جاهل

ومثل ذلك ما قاله أثناء نكته :

سل ديار الحى ما غيرها وعفاها ومحا منظرها
انها الدنيا اذا ما انقلبت صيرت معروفها منكرها

على أن الجيد فى شعر ابن الزيات لا يكاد يطفى على رديئه ،
ففى الديوان كثير من الشعر الذى يظهر فيه اثر الصنعة والتكلف
والبعد عن العاطفة ، والاغراق فى الاسفاف ، حتى لتحس بأن ابن
الزيات لا يقول شعرا نابعا من شعوره واحساسه ، وانما هو ينظم
اكلاما موزونا مقفى ، لا ينفذ الى قلب سامعه ، ولا يحرك شعور
قارئه ، لأن الشاعر نفسه لم يتأثر بما قاله ، ولم يفعل به ، بل ربما
اكره على نظمه لمناسبة من المناسبات ، وهذا الشعر يدور فى ديوان
ابن الزيات فى بعض الاغراض التى لا يدفع اليها شعور ذاتي ، ولا
عاطفة نفسية ، تلمسه فى بعض مدائحه للخليفة ، أو وصفه لبعض
المشاهد التى لم تتأثر بها نفس الشاعر ، أو فى خطرة من الخطرات

العابرة التى يجانبها صدق الاحساس . ولن نستطيع أن نستقصى
كل النماذج الرديئة فى شعر ابن الزيات ، ولكننا نعرض عليك
بعضاً منها ، وفيه غناء عن كثير مما ورد فى ديوانه .

فهو يمدح الواثق بقصيدة من هذا اللون الرديء فكتفى منها
بما يأتى :

خليفة الله طالت عنك غيبتنا عشرا وعشرا وعشرا بعدها أخرا
فالعبد يشكو الى مولاه وحشته لو كان بالعبد صبر بعد ذا صبرا
ومن هذا الشعر قصيدته التى مدح بها المعتصم فى فتح عمورية
والتي مطلعها :

ماللغوانى من رأيين برأسه يققا (١) مللن وصاله وشنيه
وهى قصيدة طويلة ملأها بالالفاظ الغريبة الحوشية ليدل
على الخليفة بمحصولة اللغوى ، دون رعاية لما يتطلبه الشعر من
صدق الاحساس ، والتأثر بما يصفه من انفعالات ، وأين هذه
القصيدة من قصيدة أبى تمام ، التى قالها فى نفس الغرض ، والتي
مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحدبين الجد واللعب
فهو لا يبدأ قصيدته بالتشبيب والغزل كما فعل زميله
ابن الزيات ، ولا يغرب فيها اغرابه ، ولكنه ينتزع من الحرب فى

(١) البقق : البياض

عمورية صورة صادقة ، فيدوها بالسيف وأثره في المارك
والانتصارات . ومن ردى شعره قوله للحسن بن وهب .
وجونا في التجاوز أن تصيرا الى بعض التعابث والغفار
يؤكى ذلك عند الوصف هذا وذا من نحو صاحبه يدارى
وبعد ، فما قول الجاحظ - يرحمه الله - فى هذا الشعر
الردى الذى يكاد يبلغ أكثر من نصف الديوان ويكاد يطغى على
الشعر الجيد فى شعر ابن الزيات ؟ وما رأى فى هذا النظم الذى
أوردنا منه هذه النماذج ، والذى لا ترى فيه اثرا للشاعرية التى
نراها فى بقية أشعاره ؟ هل نقول ان الجاحظ لم يدرك من شعر
ابن الزيات الا أجوده ، ولم ينقل اليه الا أصدقه ، فقال ما قال ؟
أو نعود الى ما قلناه من قبل من أن الجاحظ لم يقصد من قوله
« علم الشعر » الا نقد الشعر والبصر بدروبه ومسالكه ؟ أو نقول
كما قال الدكتور جميل سعيد ناشر الديوان من أن حكم الجاحظ
لا ينصب الا على شعراء الكتاب دون غيرهم من فحول الشعراء
الذين لمعت اسماءهم فى سماء الشعر فى عصره ، من أمثال ابى
نواس ، وابى تمام ، والبحتري ، أو نرجح ما سقناه من أن الجاحظ
قد تأثر فى هذا الحكم بصداقته الشخصية لمحمد بن عبد الملك
الزيات ، وللحسن بن وهب ، وحالت جوائزهما الكثيرة بينه وبين
قول الحق ؟

أيا كان رأى فنحن لانستطيع ان نقبل حكم الجاحظ على
علائه دون ان نناقشه ، وتناوله على رأى من الآراء التى أجملناها،

فما كان لشعر محمد بن عبد الملك الزيات ان يعلو على شعر شعراء ذلك العصر ، أو يطمس مآلوه ، أو يزرى بهذه الروائع التي تعتبر مفخرة للشعر العربي في العصر الذي نؤرخه .

بقيت بعد ذلك مكانة ابن الزيات في الكتابة والنثر ، وأين نضعه بين كبار كتاب عصره ؟ لقد أجمعت المصادر التي ذكرناها في أول هذا الفصل على أن محمد بن عبد الملك كان كاتباً بليغاً ، وشاعراً مجيداً ، وأديباً فاضلاً عالماً بالنحو واللغة ، وأنه من أطف الناس ذهناً ، وأرقهم طبعاً ، وأصدقهم حساً ، وأرشقهم قلماً ، وأملحهم إشارة ، إذا قال أصاب ، وإذا كتب أبلغ . فلم يغفل مصدر من هذه المصادر وصفه ببلاغة الكتابة ، ورقة العبارة ، وطلاوة الأسلوب ، ولكن به كان يمتاز نثره ؟ ان هذا يقتضينا أن ننظر في مناهج الكتابة الأدبية في ذلك العصر ، وخصائص الأسلوب التي تميز بها ، حتى نستطيع أن نضع ابن الزيات في مكانه التي تميز بها الصحيح بين هذه المناهج الكتابية .

لقد امتاز العصر العباسي منذ فجره بفحول الكتاب الذين غيروا من منهج الكتابة ، ورسوموا لها طريقاً واضحاً يتسم بالجودة والايجاز ووضوح الغرض ، والبعد عن الفسولة ، والاستعانة بقوة المنطق ، وشيوع الحكمة ، ثم تأثرت الكتابة في نهاية العصر العباسي الأول ، وبداية العصر الثاني باللغة الفارسية ، وبما هو معروف عنها من المبالغة والاغراق والتحويل ، فظهر في لغة الكتابة الميل الى الاطناب ، واستخدام الترادف والازدواج ،

وصياغة الفقر القصيرة التى تعتمد على موسيقى الألفاظ وإيحائها، فأين نضع نثر ابن الزيات من هذين المنهجين ، لقد ظهر ابن الزيات فى نهاية العصر العباسى الأول ، وأدرك طلائع العصر الثانى، فعاش على مفترق الطرق بين العصرين ، فهل تأثر بالطبقة الأولى من كتاب الدولة العباسية ؟ أو نهج منهج الطبقة الثانية؟ أو جمع بين المنهجين؟ ان أسلوب ابن الزيات فى الواقع مزيج من الطريقتين ، فهو أحيانا يرسل الكلام ارسالا فى الفاظ قوية موحية ، وفقر قصيرة مؤثرة ، تحمل طابع الجد والحزم والقوة والأسر ، مع الإيجاز الذى يربطه بكتاب العصر الأول ، وأحيانا يعتمد الى الاطناب . فى مقام الاطناب ، حين يدعو الحال الى ذلك ، فيعتمد الى التكرار والمبالغة ، والى الترادف والازدواج .

وهنا يجمل بنا أن نعرض لرأى مؤرخ من (١) مؤرخى الآداب العربية بسط فيه القول عن اساليب الكتابة فى تلك الأيام . قال : «كان كل ماكتب ابن المقفع ظرفا يسكب فيه عقلا وحكمة وفلسفة وعبرة ، وعلى هذا الذى رسم سار من ورائه كتاب عصره ، كيحيى ابن زيدة ، وعمارة بن حمزة ، والقاسم بن صبيح ، وغيرهم ممن أدركوا الدولتين وكتبوا للمنصور ، وهم رجال الطبقة الأولى ، وكذلك رجال الطبقة الثانية أمثال أبى عبيد الله معاوية بن يسار ، وأبى عبد الله يعقوب بن داود ، ويوسف بن القاسم ، ويحيى بن

خالد ، وغيرهم ممن كتبوا للمهدى والهادى والرشيد ، ثم رجال الطبقة الثالثة أمثال الفضل وجعفر ابني يحيى ، والفضل والحسن ابني سهل ، وأحمد بن يوسف ، وعمرو بن مسعدة ، وغيرهم ممن كتبوا للرشيد والأمين والمأمون ، وأمثال محمد بن عبد الملك الزيات ، وإبراهيم بن العباس الصولى ، ونحوهما ممن تربوا في عصر المأمون ، وأدركوا العصر الثانى ، فاعتبروا من رجال طبقته الأولى . فهذه الطبقات الثلاث حذو ابن المقفع في الألفاظ السهلة الممتعة البعيدة عن المزاجية والسجع ، إلا ما جاء عفوا ، وفي المعانى الشريفة النبيلة ، المشعرة بسعة العقل ، وقوة المنطق ، ولذلك نقول أن استفادة العربية من الفارسية فى العصر العباسى الأول فى ناحية المعانى كانت أظهر وأوضح منها فى ناحية الألفاظ ... الى أن يقول : بعد عهد الرشيد فاضت الفارسية على العربية اذ ذاك بكل ما هو معروف عنها من بسط واطناب ، فأكثرنا من المفردات والجمل على سبيل الترادف والازدواج ، وحامل لواء هذه الطريقة هو الجاحظ ، وقد اقتدى بالجاحظ فى هذا الأسلوب كتاب عصره الذين قلنا أنهم تربوا فى عصر المأمون ، فقصده بذلك أنهم جمعوا الى الآداب العربية الآداب الدخيلة ومنهم إبراهيم بن العباس الصولى ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ، والحسن وسليمان ابني وهب ، وغيرهم ممن كتبوا للمعتصم والواثق والمتوكل ، وكما أوحى العصر الأول الى كتابه أن يحمداوا ويحمدا لهم الايجاز ، أوحى العصر الثانى الى رجاله أن يكرروا ويطنبوا ،

ولهذا لم تعد استفادتهم من الفارسية واقفة عند حدود المعاني كما كانت لدى أولئك الأسلاف ، بل صارت في ناحية اللفظ والمعنى سواء .

على أننا لا نتفق مع صاحب هذا الرأي فيما رآه من تأثير ابن الزيات في نثره بأسلوب الكتابة في العصر العباسي الثاني ، بل مازلنا عند رأينا الذي قدمناه من أن أسلوب ابن الزيات كان مزيجاً من أسلوب العصرين ، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن ننكر تأثير ابن الزيات بأسلوب كبار الكتاب في بلاط المأمون ، حين كان يتردد عليهم في شبابه ، وكلهم من خيرة الكتاب في العصر العباسي الأول ، كما لا يمكن أن نعد ابن الزيات من كتاب العصر الثاني كما أراد له صاحب هذا الرأي .

وليس لابن الزيات ديوان رسائل يرجع إليه في احصاء رسائله التي كتبها في مختلف الشؤون ، وقد رجعنا في البحث عن ديوان رسائله إلى دور الكتب ، فلم نعثر له على أثر ، مع أن ابن النديم قال في الفهرست : « أن ابن الزيات له كتاب رسائل » ولعله فقد . وجاء في أمراء البيان « أن له كتاب رسائل قدره خمسون ورقة ولم يعثر عليه » ثم قال بعد ذلك : « والمعتق أن يكون خلف أشتاتاً من الأوراق ، والباقي اليوم من رسائله في دواوين الأدب لا يتجاوز بضع صفحات » .

على أننا نستطيع أن نورد نماذج من نثره ورسائله مما وجدناه مثبتاً في بعض كتب الأدب . فمن ذلك ما كتبه على لسان المعتصم

الى أحد العمال : « أما بعد . فقد انتهى الى أمير المؤمنين (كذا)
فأنكره ، ولا تخلو من احدى منزلتين ليس فى واحدة منهما عذر
يوجب حجة ، ولا يزيل لائمة : اما تقصير فى عملك دعاك للاخلال
بالحزم ، والتفريط فى الواجب ، واما مظاهره لأهل الفساد ،
ومداينة لأهل الريب ، وأية هاتين كانت منك محلة النكر بك ،
وموجة العقوبة عليك ، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة
والنظرة ، والأخذ بالحجة ، والتقدم فى الاعتذار والانداز ، وعلى
حسب ما أقلت من عظيم العثرة يجب اجتهدك فى تلافى التقصير
والإضاعة والسلام . »

وكتب الى ابراهيم بن العباس الصولى أيام مقامه بالأهواز
يقول : « قلة نظرك لنفسك حرمتك سناء المنزلة ، واغفالك حظك
حطك عن الدرجة ، وجهلك بقدر النعمة ، أحل بك اليأس والنقمة ،
حتى صرت من قوة الأمل ، معتاضا شدة الوجل ، ومن رجاء الغد
متعوضا يأس الأبد ، وركبت مطية المخافة بعد مجلس الأمن
والكرامة ، وصرت معرضا للرحمة بعد ما اكتفتك الغبطة . وقد
قال الشاعر :

إذا ما بدأت امرأ جاهلا
ببسر ققصر عن حملة
ولم تره قابلا للجميل
ولا عرف الفضل من أهله
فسمة الهوان ، فان الهوان
دواء لذى الجهل من جهله

وقد فهمت كتابك ، واغراقك واطنابك ، وازدواجك ما أضفت
بتزويق الكتاب بالأفلام ، وفي كفاية الله غنى عنك يا إبراهيم ،
وعوض منك ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .
وعاتبه الحسن بن وهب في أمر من الأمور ، فكتب إليه :
« يا أخى . مازلت عن مودتك ، ولا حلت عن اخوتك ، ولا
استبطأت نفسى لك ، ولا استزدتها فى محبتك ، وان شخصك
لمائل نصب طرفى ، ولقل ما يخلو من ذكرك قلبى ، والله در الذى
يقول :

أما والذى لو شاء لم يخلق النوى
لئن غبت عن عيني لما غبت عن قلبي
يذكرنيك الشوق حتى كأنني
أناجيك من قرب وان لم تكن قربي
ومن توقعاته السياسية :

« ان الله أوجب لخلفائه على عباده حق الطاعة والنصيحة ،
ولعبيده على خلفائه بسط العدل والرفقة ، واحياء السنن الصالحة ،
فاذا أدى كل الى كل حقه ، كان ذلك سببا لتمام المعونة ، واتصال
الزيادة ، واتساق الكلمة ، ودوام الألفة » .

وكتب للوائح « ليس من نعمة يجدها الله لأمر المؤمنين فى
نفسه خاصة الا اتصلت برعيته عامة ، وشملت المسلمين كافة ،
وعظم بلاء الله عندهم فيها ، ووجب عليهم شكره عليها ، لأن الله
جعل بنعمته تمام نعمتهم ، ويتديروا وذب عنه دينه حفظ حريتهم ،

ويحيي طئته حقن دماءهم ، وأمن سبيلهم ، فأطال الله بقاء أمير المؤمنين منطوى القلب على مناصحته ، مؤيدا بالنصر ، معززا بالتمكين ، موصول البقاء بالنعيم المقيم .
 وكتب بحضرة المعتصم عهدا للوائق على مكة : « أما بعد ، فإن أمير المؤمنين قد قلدك مكة وزمزم ، وتراث أيبك الأقدم ، وجدك الأكرم ، وركضة جبريل ، وسقيا اسماعيل ، وحفر عبد المطلب ، وسقاية العباس ، فعليك بتقوى الله ، والتوسعة على أهل بيته » .

وعندما قبض المعتزم على بابك الخرم ، وانهزم أتباعه وتفرقوا أمام جند الأفشين ، وأحضره الأفشين أسيرا الى بغداد ليراه الخليفة ، ويراه الشعب ، أمر المعتصم وزيره محمد ابن عبد الملك الزييات أن يكتب فى ذلك الى ملوك الآفاق من المسلمين ، وقد ورد هذا الكتاب فى صبح (١) الأعشى للقلقشندي وما جاء فى هذا الكتاب بعد التحميد : « فأما اللعين بابك وكفرته فانهم كانوا يغزون أكثر مما يغزون ، وينالون أكثر مما ينال منهم ، ومنهم المنحرفون عن الموادة ، المتوحشون عن المراسلة ، ومن أدبلوا من تتابع الدول ، ولم يخافوا عاقبة تدركهم ، ولا دائرة تدور عليهم ، وكان مماطاً ذلك ومكنه لهم أنهم قوم ابتداءوا أمرهم على حال تشاغل السلطان ، وتتابع من الفتن ، واضطراب من الحبل ، فاستقبلوا أمرهم بغرة من أنفسهم وضعف ،

(١) صبح الاعشى : ج ٦

واستشارة ممن باراهم ، فأجلوا من حولهم لتخلص البلاد لهم ، ثم
أخربوا البلاد ليعز مطلبهم ، وتشتد المؤنة ، وتعظم الكلفة ، ويقولوا
فى ذات أيديهم ، فلم يتواف اليهم قواد السلطان الا وقد توافى
اليهم القوة من كل جانب ، فاستفحل أمرهم ، وعظمت شوكتهم ،
واشتدت ضراوتهم ، واستجمع لهم كيدهم ، وكثر عددهم
واعتدادهم ، وتمكنت الهيئة فى صدور الناس منهم ، وتحقق فى
نفوسهم أن كل ما يعدم الكافر ويمنيهم أخذ باليد ، وكان الذى
بقى عندهم منه كالذى مضى ، وبدون هذا ما يختدع الأريب ،
ويستنزل العاقل ، ويعتقل الفطن ، فكيف بمن لا فكرة له ، ولا
روية عنده .

ثم يمضى الكتاب فى وصف ما أعده أمير المؤمنين لملاقاتهم من
جيوش وعدة ، إلى أن انتصر المسلمون عليهم ، وتخطفوهم
بسيوفهم ، وانتظموهم برماحهم ، ولم يجدوا ملجأ ولا مهربا ، ثم
يختم الخطاب بقوله « فالحمد لله الذى أعز دينه ، وأظهر حجته ،
ونصر أوليائه وأهلك أعداءه ، حمدا يقضى به الحق ، وتتم به
النعمة ، وتتصل به الزيادة . والحمد لله الذى فتح على أمير
المؤمنين ، وحقق ظنه ، وأنجح سعيه ، وحاز له أجر هذا الفتح
وذخره وشرفه ، وجعله خالسا لتمامه وكماله ، بأكمل الصنع ،
وأحسن الكفاية .

وهذا الكتاب من الكتب المطولة ، فليرجع اليه فى صبح
الأعشى من شاء .

الفصل الخامس علاقته بالشعراء والكتاب

أدرك ابن الزيات في شبابه كثيرا من فحول الشعراء :
أكالعباس بن الأحنف ، وأبي نواس ، وأبي العتاهية ، ومسلم
ابن الوليد ، وغيرهم ، ولكن كتب الأدب لم تتعرض لعلاقة
ابن الزيات بواحد من هؤلاء الفحول ، ولعل السبب في ذلك أن
ابن الزيات لم يكن قد استوى بعد على عوده شاعرا تتجه إليه
الأنظار ، ولم يكن قد وصل بعد الى مركز الوزارة ، حيث تتجمع
من حوله أقلام التاريخ وصحائفه . ولكنه ما كاد يلمع نجمه في
سماء بغداد ، ويصبح مناط الآمال في دنيا الناس حتى ابتدأ
التاريخ يدون صلته بالشعراء والكتاب الذين عاصروه في تلك
الفترة ، ويروى أحداثهم معه : ومن هؤلاء الشعراء والكتاب ..
إبراهيم بن العباس الصولي .

كان إبراهيم صديقا حميما لابن الزيات ، افتتحا حياتهما
الأدبية والسياسية معا في بلاط المعتصم ، وكان إبراهيم أحد كتاب
الدنيا في زمانه حتى لقب بكتاب العراق ، وكان فوق ذلك شاعرا
رقيقا ، وقد تعرضت صداقة الرجلين لمحنة قاسية ، فصمت عري

الصداقة بينهما ، وأوهت جبالها ، حتى أنجى إبراهيم على صديقه
بالهجاء ، وبسط فيه لسانه « وسبب (١) هذه المحنة أن ابن الزيات
لما ولى الوزارة نقص إبراهيم مما يستحقه من الدعاء ، فلم تحتفل
ذلك نفسه ، ورياسته وموضعه من الصناعة والدولة ، فعاتبه فى
ذلك فلم يعتبه ، فألهب له إبراهيم نار هجاء لا يطفئها الدهر » ثم
عزله ابن الزيات بعد ذلك عن ولاية الأهواز ، وجبسه ، واستصفى
أمواله ، فقال فيه إبراهيم :

من رأى فى المنام مثل أخ لى
كان عـونى على الزمان وخلى
رفعتـه حال فحـاول حطى
وأبى أن يعـسـز الا بذلى
ثم أخذ يعرض بماضى ابن الزيات ، وما كان عليه قبل أن يلى
الوزارة ، فيقول :

فان تكن الدنيا أنا لك ثروة
فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
فقد كشف الاثراء منك خلائقا
من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر
ولكن ما الذى دفع ابن الزيات الى أن يتكر لصديقه ، وأن
يتقص من مخصصاته ، وأن ينكبه فى ماله وولايته ؟ ان مصادر
التاريخ مجمعة على أن إبراهيم لم يكن فى ولايته نظيف اليد ، ولم

(١) الاغانى ج ٩

يكن يحسن الإدارة ، وكان يصرف وقته كله فى الشراب والغناء ومجالسة القيان والمجان ، وابن الزيات بحكم مركزه حريص على أموال الدولة وسمعتها ، لا يفضى عن هذه الاعتبارات ، ولو كان المخطيء من أعز أصدقائه ، فوضع صالح الدولة فى الاعتبار الأول ، ولم يزد استعطاف ابراهيم له الا مضيا فى سياسته التى رسمها ، حتى يكون فى ذلك عظة لغير ابراهيم من الولاة ، ولم يخفه هجاء ابراهيم فيشترى سكوته بالاغضاء عنه . على أن هناك افتراضا يلقي ظلالة من الشك على حقيقة الأسباب التى أفسدت العلاقة بين الشاعرين .. فهل يكون ابن الزيات مسوقا الى ما فعله بدافع الحسد من مكانة ابراهيم الأدبية ، فهو يخشى أن يرحمه فى مكاتته عند الخفاء ؟ ولكن الموازنة بين أخلاق الرجلين : أخلاق الوزير الحازم ، الحريص على أموال الدولة حتى على الأمراء وأبناء الملوك ، وأخلاق ابراهيم الوالى المتحرر من قيود الوظيفة ، العاثر بمقدراتها ، الفاشل فى ادارته ، تسقط من حسابنا هذا الافتراض ، وتمحو ظلال الشك وتبددها ، وتعطى لابن الزيات الحجة على خصمه فيما صنع .

وشاعر آخر اتصل بابن الزيات ، وهجاء فيمن هجاهم من الملوك والأمراء ، ذلك الشاعر هو دعبيل الخزاعى ، ولكن ابن الزيات كان يخشاه ويتحاشاه ، فقد هجا المأمون والمعتصم بأقذع أنواع الهجاء ، ولما سئل ابن الزيات : لم لا تحيب دعبلا عن قصيدته التى هجأك فيها ؟ قال : ان دعبلا قد نحت خشبته ، وجعلها على

عنقه ، يدور بها يطلب من يصلبه منذ ثلاثين سنة ، ليس يجد أحدا
يفعل ذلك به ، أأجىء أنا فأجيه ؟ قد ضللت اذن وما أنا من
المهتدين .

واتصل أبو تمام كغيره من الشعراء بابن الزيات ، ومدحه
بأروع مدائحه ، فمن قصائده التى مدحه بها هذه القصيدة التى
يقول فيها :

خلق مشرق ورأى حمام
ووداد عذب وريح جنوب
كل يوم له وكل أوان
كرم ضاحك ومال كئيب
والقصيدة التى وصف فيها قلم ابن الزيات بقوله :
لك القلم الأعلى الذى بشباته
ينال من الأمر الكلى والمفاصل
لعاب الأفاعى القاتلات لعابه
وأرى الجنى اشتارته أيد عواسل
وكان بن الزيات يضيق بمدائح أبى تمام فى ابن أبى دوداد
حتى قال له حين مدحه بإحدى قصائده :
وأيتك سهل البيع سمحا وانما يغالى اذا ماضن بالثىء يائعه
وكان يود أن تقتصر مدائح ابى تمام عليه وعلى المعتصم ، وكان
ابن الزيات يعتبره شاعر البلاط . لذلك جاءت قصائد أبى تمام

فيه وفي المعتصم من عيون شعر أبي تمام .
وهناك شعراء آخرون كانت بينهم وبين ابن الزيات مساجلات
هجائية ومن أشهر هؤلاء علي بن جبلة ، وعلي ابن الجهم ، ونرى
في ديوان ابن الزيات كثيرا من هجائه لهذين الشاعرين .
وشاعر آخر من كبار شعراء الدولة العباسية تغنى بمآثر الوزير
ابن الزيات ، وأشاد بها في شعره ، ومدحه بأبرز خصائصه وهي
الكتابة ، فيقول البحتري في مدح ابن الزيات :
تفنت في الكتابة حتى عطل الناس فن عبد الحميد
في نظام من البلاغة ماشك امرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا حاك في رونق الربيع الجديد
وتمضى القصيدة في هذه السلسلة الرائعة تمثل سياسة ابن
الزيات في حكمه ، ومكانته في الدولة .

وقد أدرك ابن الزيات بحكم اتصاله بديوان المأمون كثيرا من
كبار كتاب هذا العهد ، وتأثر بهم ، وعمل تحت إرشادهم ، ومن
هؤلاء سهل بن هارون ، وأحمد بن يوسف ، وعمرو بن مسعدة .
على أن هناك كاتبين ارتبط تاريخهما بابن الزيات ارتباطا وثيقا ،
أحدهما كان لابن الزيات صديقا حميما والثاني كان لابن الزيات
عدوا لدودا .

أما أولهما فهو الجاحظ الذي اصطفاه ابن الزيات كاتباً له
بعد أن رفض أن يكون كاتباً في ديوان المأمون ، فلزمه الجاحظ
وانقطع إليه ، وانبسط رزقه في جوار ابن الزيات ، ورغد عيشه ،

حتى ان ابن الزيات أقطعه أربعمائة جريب ، ومنحه خمسة آلاف دينار حين أهداه كتاب الحيوان ، ولم تقم العلاقة بين الرجلين على الرياء والمصانعة - كما خيل لبعض النقاد - حين توهم أن للسلطة التي جمعها ابن الزيات في يده بحكم مركزه أثرا في تقرب الجاحظ اليه نفاقا وزلفى ، ولو كان الأمر كذلك لكان تزلف الجاحظ الى المأمون أجدى عليه وانفع ، حين ولاه ديوان الرسائل فاستغفاه ، كما أن ابن الزيات لم يكن فى حرصه على صداقة الجاحظ يصانعه أو يداريه ، ليشتري سكوت قلمه اللاذع عن تناوله بالنقد والتجريح ، كما يفعل السياسيون المجترفون الذين يشترون اقلام الكتاب ، لأنه يعلم أن كاتباً كبيراً كالجاحظ لا يمكن أن يشتريه سياسى مهما كان مركزه ، أو يستأثر به من دون رجال الدولة جميعاً . ولو كان الأمر كذلك لفستت قضية الود بينهما حين أهدى الجاحظ كتاب البيان والتبيين الى عدو ابن الزيات أحمد بن أبى دواد ، وأهدى كتاب الزرع والنخل الى ابراهيم بن العباس الصولى الذى أطلق لسانه فى ابن الزيات ، وكوفىء الجاحظ من كل منهما بخمسة آلاف دينار .

ولقد شاءت محنة الوزير ابن الزيات فى خلافة المتوكل أن تدحض كل فرية تشوب العلاقة بين الجاحظ وابن الزيات ، أو تغزوها الى سبب آخر غير الصداقة والود ، فقد ترك الجاحظ بغداد حزينا بعد نكبة الوزير ، يتلمس العزاء فى البصرة ، ويتعد عن الرؤى والمغانى التى تذكره بصديقه ابن الزيات ، ولم يشأ

أن يربط أسبابه بأسباب حاكم جديد يعيش الى جواره في بغداد
منعما كما كان ، حتى قبض عليه ، وسبق مكبلا بالأغلال الى
بغداد .

وبعد ، فهل صفت الحياة للجاحظ بعد موت صاحبه ؟ وهل
طاب له المقام في بغداد بعد أن عفا عنه ابن ابي دواد ؟ لقد كان
ابن الزيات هو كل شيء في حياة الجاحظ ، ولذلك أثر أن يعود
الى بلده ، وألحت عليه العلل والأمراض ، وظلت مأساة ابن الزيات
تؤرق مضجعه ، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة بالبصرة .

وأما الثاني فهو أحمد بن أبي دواد قاضي الخلافة ، وكان فوؤ
فقيه شاعرا كاتباً أدبياً كما يقول ابن خلكان ، وكان واسع الحيلة
شديد الدهاء ، حسن المدخل الى قلوب الخلفاء ببلاغته وفصاحته
انتزع من المأمون إعجابه به ، فأوصى به أخاه المعتصم « فكا
لا يفعل فعلاً ظاهراً ولا باطناً الا برأيه » وظلت له نفس المسكا
عند الواقع . ولما مرض بن أبي دواد عاده المعتصم في داره ، ونذ
ان شفاه الله أن يتصدق بعشرة آلاف دينار ، فقال ابن أبي دواد
اجعلها يا أمير المؤمنين لأهل الحرمين ، فقد لقوا من غب
الأسعار غنتاً ، فقال المعتصم : نويت أن أتصدق بها هنا ، وأنا أط
لأهل الحرمين مثلها . وقيل للمعتصم : كيف تعود في داره وأ
لا تعود اخوتك وأجلاء أهلك ؟ فقال المعتصم : وكيف لا أعود ر
ما وقعت عيني عليه قط الا ساق الى أجرا ، أو أوجب لى شك
أو أفادنى فائدة تنفعنى في دينى ودنياي ، وما سألتني حاجة لن
قط . »

وقال له الواثق يوما : « قد اختلت بيوت الأموال بلطبائك
اللائذين بك ، والمتوسلين اليك ، فقال أحمد : ياأمير المؤمنين ،
نتائج شكرها متصلة بك ، وذخائر أجرها مكتوبة لك ، ومالى من
ذلك الا عشق اتصال الألسن بحلو المدح فيك . فقال الواثق : يا
أبا عبد الله ، لا منعناك مايزيد فى عشقك ، ويقوى من همتك ،
فتناولنا بما أحببت . وقال عنه لازون بن اسماعيل : « ما رأيت
أحدا قط أطوع لأحد من المعتصم لابن أبى دودا » .

وقد روت كتب التاريخ من القصص ما يدل على المكانة
الكبيرة التى كان يحظى بها ابن أبى دودا عند الخلفاء ، حتى كان
الناس يستشفعون به لديهم ، استشفع لخالد بن يزيد الشيبانى
عند المعتصم ، ولمحمد بن الجهم البرمكى ، فأنتقد رقبتهما من القتل .
كما استشفع لكثيرين غيرهما .

هذه المكانة كانت تؤرق مضجع ابن الزيات الوزير ، لأنه
كان حريصا على أن يحتفظ لمركز الوزارة بهيبته وسلطانه ، فلا
يرتفع نفوذ الى جانب نفوذه ، ولا يزحم سلطانه سلطان فى نفوس
الخلفاء ، لذلك اشتعلت بينهما معركة خفية من الدسائس ، استخدم
فيها ابن أبى دودا بعض الشعراء فى هجاء الوزير ، واستخدم فيها
الوزير نفوذه للحد من مكانة ابن أبى دودا ، وفى ذلك يقول
ابن خلكان : (١) : « كان بين الوزير ابن الزيات وابن ابى دودا
منافسات وشحناء حتى ان شخصا كان يصحب القاضى المذكور ،
ويختص بقضاء حوائجه ، منعه الوزير المذكور من التردد اليه ،

فبلغ ذلك القاضي ، فجاء الى الوزير ، وقال له : والله ما اجيئك
متكثرا بك من قلة ، ولا متعززا بك من ذلة ، ولكن أمير المؤمنين
رتبك مرتبة أوجبت لقاءك ، فان لقيناك فله ، وان تأخرنا عنك فلك ، ثم

ويقول اسحق بن ابراهيم الموصلي : « سمعت ابن
أبى دواد فى مجلس المعتصم وهو يقول : « انى لأمتنع عن
تكليم الخلفاء بحضرة ابن الزيات الوزير فى حاجة ، كراهة أن
أعلمه ذلك ، ومخافة أن أعلمه التأتى لها » .

ويقول صاحب الأغانى : « ان الواثق لما أصدر أمره بالآل يرى
أحد من الناس وزيره ابن الزيات الا قام له ، بما فيهم القاضي ،
فكان أحمد بن أبى دواد اذا رأى الوزير قادما قام ، واستقبل
القبلة ، وشرع فى الصلاة ، فقال ابن الزيات ، لما رأى ذلك منه :

صلى الضحى لما استفاد عداوتى وأراه ينسك بعدها ويصوم
لا تعد من عداوة مسمومة تركتك تقعد تارة وتقوم

هذا مجمل الصراع بين الرجلين ، قاض له من نفوذه ومكائنه
ما يسوغ له أن يبدأ الخلفاء بالكلام ، وكان ذلك محرما من قبل
ووزير له من السطوة والقوة فى جهاز الحكم ما يفرض على
الجميع احترامه والقيام له ، بما فيهم عدوه اللدود أحمد بن أبى
دواد .

الفصل السادس عقيدته

ظهر محمد بن عبد الملك الزيات فى مصر اضطرب بكثير من العقائد والمذاهب ، وكثرت فيه الفرق الدينية ، وتعددت الملل والنحل ، وخاض الناس فى كثير من الآراء التى كان يقف عندها السلف الصالح لا يبحثون ولا يتفلسفون ، وشهد ابن الزيات فى مطلع شبابه ، وتفتح مواهبه عصر المأمون ، وعاش على مقربة من بلاطه ، يخالط كبار الكتاب فى ديوانه ، ويعمل الى جوارهم ، ورأى المأمون وهو يطلق العنان لحرية الرأى ، ويفتح للباحثين باب الجدل على مصراعيه ، ويشجع العلوم والمعارف من كل لون ومذهب ويحمى الفلاسفة والمتكلمين ، ويفسهم لهم فى مجلسه ، ويدينهم منه ، وشاهد ابن الزيات مذاهب تصطرع ، وفرقا تتطاحن ، وعقائد تشابك وتتلاحم ، ثم تفرق وتختلف ، كالمعتزلة والجهمية والشيعة والخوارج والمرجئة وغيرهم من فرق الزنادقة ، وذوى الميول الهدامة ، رأى ابن الزيات كل هذا ، وعاش فيه وفى تلك التيارات المختلفة ، ورأى بغداد تموج بأقوال هذه الفرق وهى اقتصارع ، وتتقارع بالحجة ، وتتجادل بالرأى ثم رآها وهى تتنافس على الغلبة والسلطان ، ويستعدى بعضها الخلفاء ، ويستميلهم الى جانبها ، ليكون له الغلبة والظفر فى معركة الرأى والفكر .

ولقد استطاع المعتزلة أن يظفروا بتأييد الدولة ومساندتها في عصر المأمون ، فشايعتهم بالقوة ، واستخدموا سلطانها في سبيل ارهاب خصومهم ، ونشر أفكارهم ، وجند المأمون أجهزة الدولة للتنكين لهم ، واذاعة مبادئهم بين عامة الناس ، وأصبح من أكبر دعائهم ، وظلت الدولة من بعده مصطبغة بهذه الصبغة في عهدى المعتصم والواثق ، دولة مذهبها الرسمى هو الاعتزال .

« وما دعا المأمون (١) الى هذا الا ثقافته الواسعة العميقة فشغف من أجل ذلك بالبحث العلمى والأدبى ، واتخذ له رجالا يجتمعون فى قصره ، فيتجادلون ، ويتناظرون فى شتى المسائل: مرة أدبا ، ومرة فقها ، وحيناً تاريخاً ، وحيناً كلاماً ، وكان عقله فلسفياً ، حراً فى تفكيره مع التقيد بأصول الدين ، وكان ما يدور فى مجلسه من الجدل والمناظرة يتناقل على ألسنة الناس ، فيتجادلون فيه كذلك ، ويكون جدالهم صدى لجدال القصر . وإذا كان المأمون على ما ذكرنا من حرية التفكير ، كان الاعتزال أقرب المذاهب الى نفسه ، لأنه أكثر حرية ، وأكثر اعتماداً على العقل ، ففقر المعتزلة منه ، وأصبحوا ذوى نفوذ فى القصر ، وكان من أظهرهم ثمامة بن الأشرس ، وأحمد بن أبى دواد . »

والمعتزلة من أقوى الفرق الاسلامية التى ظهرت فى أول العصر العباسى ، ورجالها يعتبرون من أعظم الرجال علماً ومنطقاً ، وأكثرهم بلاغة وفصاحة ، وهم الذين تصدوا لكل الفرق الجامدة التزمته

(١) ضحى الاسلام للاستاذ المرحوم أحمد امين ج ٢ - ١٦٢

والفرق المنحرفة عن الدين ، ورجال الأديان الأخرى من يهودية
ونصرانية وزرادشتية ، فكانوا يفحسون خصومهم بالحجة والمنطق
ويظهرون عليهم بالبلاغة ، ونصاعة البيان ، واستخدموا المنطق
والفلسفة لأول مرة فى الرد على خصرمهم ، ولهم الفضل الأول
فى وضع أسس علم الكلام وعلم البلاغة وعلم الجدل .

ولما اعتنق المأمون مذهب المعتزلة كان فى القصر تياران يتجه
أكل منهما فى اتجاه مضاد للآخر ، تياران يقودهما أصحاب رأى
وعلماء المعتزلة فى حاشية المأمون ، تيار ينادى بترك الناس أحرارا
فى اعتقاد ما يرون من الآراء والمذاهب ، وليس للخليفة أن يدخل
فى نصرة مذهب على مذهب ، أو ترجيح رأى على رأى ، وليس
للدولة أن تتدخل بسلطانها وقوتها فى ارغام الناس على اعتناق
ما يدين به المأمون من رأى المعتزلة ، وحصر المعركة فى نطاق
الجدل والمناقشة . وعلى رأس هذا التيار يحيى بن أكثم
قاضى المأمون ، ويزيد بن هارون الواسطى ، فيحى بن
أكثم يقول للمأمون : « الرأى أن تدع الناس على ما هم عليه ،
ولا تظهر لهم أنك تميل الى فرقة من الفرق ، فان ذلك أصلح
فى السياسة ، وأحرى فى التدبير » ويزيد بن هارون يحكى عنه
يحيى بن أكثم أن المأمون قال : « لولا مكان يزيد بن هارون لأظهرت
القول بخلق القرآن » فقال له بعض جلسائه : « ومن يزيد بن هارون
حتى يتقيه أمير المؤمنين ، فقال انى أخاف ان أظهرته يرد على ،
فيختلف الناس ، وتكون فتنة ، وأنا أكره الفتنة » . والتيار الثانى

على رأسه ثمانية بن الاشرس وأحمد بن أبى دواد ، وشاء القدر
 أن يضعف التيار الأول ، ويقف تدفقه ، فقد مات يزيد بن هارون
 سنة ٢٠٦ هجرية ، وعزل يحيى بن أكثم عن منصب قاضى القضاة ،
 وتولى مكانه أحمد بن أبى دواد ، فرجحت كفة المؤيدين ، وحمل
 المأمون الناس على مذهب الاعتزال ، والقول بخلق القرآن ، بقوة
 الدولة وسلطانها ، وآمن بمذهبهم عن عقيدة ، متأثرا بما نادوا به
 من سلطان العقل ، وبإلهام من أثر فى الذود عن الاسلام .
 ومذهب المعتزلة يقوم على أصول خمسة هى :

- ١ - القول بالتوحيد .
- ٢ - القول بالعدل .
- ٣ - القول بالوعد والوعيد .
- ٤ - القول بالمنزلة بين المنزلتين .
- ٥ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ويعد الأصل الأول والثانى من أهم اصول الاعتزال ، حتى
 لقب المعتزلة « بأهل العدل والتوحيد » وفى الاصل الأول
 يستمسكون بآيات التنزيه ، من مثل قوله تعالى : « ليس كمثله
 شيء » ويشرحونها ويوضحونها ، وخلصوا من أقوالهم فى هذا
 الأصل الى انكار رؤية الله فى الآخرة ، والايمان بأن الذات هى
 نفس الصفات ، فذات الله وصفاته شيء واحد لا يقبل التجزئة
 بحال من الأحوال ، وتفرع عن هذا الأصل مسألة خلق القرآن
 التى سنعرض لها بعد قليل ، وأوصلتهم أبحاثهم فى الاصل الثانى

الى مسائل كثيرة أهمها ثلاث :

١ - أن الله سبحانه وتعالى يسير بالخلق الى غاية ، وأنه يريد خير ما يكون لخلقه .

٢ - أن الله لا يريد الشر ولا يأمر به .

٣ - أن الله لم يخلق أفعال العباد لا خيرا ولا شرا، وأن ارادة الانسان حرة ، والانسان خالق أفعاله ، ومن أجل هذا كان مثابا على الخير ، ومعاقبا على الشر ، وتفرع عن هذا الأصل الحسن والقبح ، والجبر والاختيار . والأصلان الثالث والرابع - وهما الوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين - جمع بينهما المعتزلة للارتباط الشديد بينهما ، وهما مبنيان على نظرة المعتزلة للإيمان ، فليس الايمان عندهم هو التصديق والاعتقاد القلبى وحده ، بل هو كذلك الاقرار باللسان ، وأداء الواجبات ، والقيام بالفروض ، وجرهم هذا الى القول بأن المعاصى تنقسم قسمين : صغائر وكبائر ، وأن الكبيرة ما أتى فيها الوعيد ، والصغيرة ما لم يأت فيها وعيد وأن الكبائر يصل بعضها الى حد الكفر ، وهناك كبائر أقل منها منزلة . والفشق منزلة بين المنزلتين ، فالفاسق ليس مؤمنا ولا كافرا ، وهم يرون فى الأصل الأخير - وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - أن يكون الامر والنهي بالقلب ان كفى ، وباللسان ان لم يكف القلب ، وباليده اذا لم يغنيا ، وبالسيف اذا لم تكف اليد .

وقد جعل هذا الأصل الأخير للمعتزلة سلطانا داخل سلطا الدولة ، فأنت ترى عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة يقول لعبد الكريم ابن أبي العوجاء - وكان يتهم بالزندقة والاحاد وافساد الشباب قد بلغني أنك تخلو بالحدث من أحداثنا فتفسده وتستزله ، وتدخل في دينك ، فإن خرجت من مصرنا « يريد البصرة » والا قمت فيك مقاما آتى فيه على نفسك . وترى واصل بن عطاء - شيخ المعتزلة أيضا بالبصرة - لما ثبت له ما يشهد على الحاد بشار بن برد الشاء يخطب في الناس فيقول : « أما لهذا الأعمى الملحد ، أما لهذا المشنف المكنى بأبى معاذ من يقتله ، أما والله لولا أن الغيلة سجد من سجايا الغالية لدستت اليه من يبيع بطنه في جوف منزله في حمله » وتعاون واصل وعمرو بن عبيد على الهتف به حتى نفي من البصرة ، فذهب الى حران ، فلما مات واصل رجع بشار الى البصرة ، فلم يتركه عمرو بن عبيد حتى نفى ثانية ، وظل يتنقب في البلاد الى أن مات عمرو ، فعاد الى البصرة ، وأقام بها ، وذلك يقول صفوان الانصارى لبشار (١) :

رجعت الى الأمصار من بعد واصل
و كنت شريدا في التهائم والنجد
ويقول الأستاذ أحمد أمين (٢) عن مذهب المعتزلة : « لقد أطلقوا للعقل العنان في البحث في جميع المسائل ، فجعلوا له الـ

(١) الاغانى ج ٢

(٢) ضحى الاسلام للمرحوم الاستاذ احمد امين ج ٢

أن يبحث في السماء وفي الأرض ، وفي الله وفي الانسان ، وفيما
 دق وجل ، وكانت نظرهم في توحيد الله في غاية السمو والرفعة ،
 وكذلك كان نظرهم الى عدل الله ، فقد وقفوا أمام مشكلة المثوبة
 والعقوبة فرأوا أن ذلك لا يكون له معنى الا بتقرير حرية الارادة
 في الانسان ، وأنه يخلق أعماله بنفسه . أما عن مبدأ الأمر بالمعروف
 والنهي عن المنكر عندهم ، فهم يرون تنفيذ ما يعتقدون به وانكار
 ما ينكرون ولو بالسيف ، وساروا على ذلك فعلا من تهديدهم بعض
 من اعتنقوا الزندقة بالقتل ، وهذا من أخطر المبادئ ، لأنه يجعل
 في الأمة حكومة داخل حكومة ، ويهدد الحرية العامة ، فيجعل
 للفرد سلطانا أن يحمل السيف ، ليستعمله ضد مخالفه في الرأي
 والعقيدة ، وهذا مسلك يدعو الى الفوضى والاضطراب ، ويظهر
 أن بعض المعتزلة شعر بهذا الخطر ، فقرر مبدأ عادلا ، وهو أنه
 لا يجوز الراجح على الامام الجائر الا لجماعة لهم من القوة
 والمنعة ما يغلب على ظنهم معها أنها تكفي للنهوض وازالة الجور ،
 ولا يصح الخروج الا مع امام عادل . ومما يؤخذ عليهم أنهم لم
 يفرقوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين شيء أجمع على
 انكاره : كالسرقة والقتل والزنا ونحو ذلك ، وبين شيء مختلف
 فيه كالاعتقاد بوحدة الله ذاتا وصفات ، والقول بالعدل ، وخلق
 القرآن ، فكان يجب أن يفرقوا بينهما ، ويقرروا أن الأشياء المختلفة
 عليها يجب أن يكون الأمر بالمعروف فيها والنهي عن المنكر
 مقصورا على المناظرة ، والدعوة الى الرأي فيها بالحسنى . ولكننا

نرى المعتزلة في أيام دولتهم عكسوا الأمر ، وجعلوا المسائل المختلف عليها في العقائد في الدرجة الأولى ، واشتركوا مع الحكومة في فرض رأيهم بالسيف ، وأقاموا الدولة وأقعدوها وقدموا القول بخلق القرآن على كل أمر عداه ، وجعلوا البلاد كلها موضوع محاكمة ، وقد كان من أثر ذلك أن خصومهم يوم دالت دولتهم عاملوا المعتزلة بنفس السلاح الذي استعملوه أيام سلطانهم .

كانت الفتنة الكبرى التي أشعل المعتزلة أوارها في ظل سلطان المأمون هي فتنة خلق القرآن على ما قال الاستاذ أحمد أمين ، حتى سميت المحنة الكبرى ؛ قاموا فيها بامتحان الناس وتعذيبهم وحملهم على القول بخلق القرآن بالتنكيل والأذى ، وقصدوا الفقهاء والمحدثين يصبون عليهم العذاب ألوانا ، ويأخذونهم بالشدة ، ويسلطون عليهم الولاة بأمر المأمون يسوقونهم الى السجن والجلد ، فمنهم من استنقذ نفسه وجسمه من العذاب ، وقال بقول المعتزلة ولوثقية ، ومنهم من صبر على المحنة الى نهايتها ، حتى قضى نحبه في سبيل عقيدته ، وقد استمرت هذه المحنة مدة خلافة المأمون والمعتصم والواثق كما قدمنا .

وقد ظهر القول بخلق القرآن - أول ما ظهر - في آخر الدولة الأموية ، على لسان الجعد بن درهم معلم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، وقال بذلك جهن بن صفوان الترمذي صاحب مذهب الجهمية ، ولكن دعاة هذه الفكرة لم يظفروا بتأييد الحكومة في آخر الدولة الأموية ، لأنها كانت صائرة الى الزوال ، فلما

جاء المأمون العباسي ، وأطلق للناس حرية الرأي ، وعقد المجالس
 في بلاطه للجدل والمناظرة ، تبنى هذه الفكرة ، التي تفرعت عن
 أصل من أصول مذهب المعتزلة ، وحرصه على ذلك كبار علمائهم
 وعلى رأسهم أحمد بن دواد ، فبدأ يرسل الكتب الى الأمصار ،
 يطلب الى الولاة أن يأخذوا الفقهاء والمحدثين والعلماء بالقول
 بخلق القرآن ، وأن يعزلوا كل قاض لا يعتنق هذا الرأي ، وأن
 يرفضوا شهادة كل شاهد لا يؤمن به ، وكتب المأمون الى واليه على
 بغداد اسحق بن ابراهيم بن مصعب أن يشخص اليه بطرسوس
 سبعة من كبار المحدثين وهم : محمد بن سعد كاتب الواقدي ، وأبو
 مسلم مستملى يزيد بن هارون ، ويحيى بن معين ، وزهير بن حرب
 وأبو خيثمة ، واسماعيل بن دواد ، واسماعيل بن أبي مسعود ، وأحمد
 ابن الدورقي ، ويظهر أن هؤلاء السبعة كانوا من وجوه المحدثين
 في بغداد ، ومن شنعوا على المأمون بالقول بخلق القرآن ، فلما
 أشخصوا الى المأمون سألهم جميعا عن خلق القرآن ، فأجابوا
 جميعا : أن القرآن مخلوق ، فأعادهم الى بغداد ، وأمر اسحق
 ابن ابراهيم بن مصعب أن يجمع الفقهاء والمشايخ من أهل الحدث
 في داره ، وأن يقول أمامهم هؤلاء السبعة مثل ما قالوا به أمام
 المأمون ، ففعلوا ، وخلي سبيلهم ، ولم يطلب المأمون أشخاص
 أحمد بن حنبل مع هؤلاء السبعة ، لأن أحمد بن أبي دواد نصح
 المأمون بأن يترك ابن حنبل حتى يفتن الفقهاء من حوله ، لأنه
 يعرف صلابة ابن حنبل ، وليس من مصلحة القضية أن يكون بينهم ،

وقد روى أن ابن حنبل حزن لهذا الحادث جدا وقال : « لو كانوا صبروا وقاموا لله لكان انقطع الأمر وخافهم الرجل (يعنى المأمون) ولكن لما أجابوا وهم عين البلد اجترأ على غيرهم » وكان ابن حنبل اذا ذكرهم يغتم ويقول : « هم أول من ثلموا هذه الثلثة » . على أن ابن حنبل وصديقه محمد بن نوح لم يسلموا من هذه المحنة ، اذ طلب المأمون اشخاصهما اليه بعد القبض عليهما ، وقيدهما بالقيود ، ولكن المأمون مات قبل أن يصلا اليه ، فأعادهما والى الرقة الى بغداد ، وتوفى ابن نوح فى الطريق ، وصلى عليه صديقه ابن حنبل وكفنه ودفنه ، وظل العذاب ينتظر أحمد بن حنبل على يد المعتصم - الخليفة الجديد - ولأقرب منه ألوانا بتحريض ابن أبى دواد للمعتصم ، وابن حنبل لا يلين العذاب قناته ، ولا يضعف من عقيدته ، حتى اتجهت اليه انظار الجماهير معجبة بصلابته ، مبهورة بقوة ايمانه وعقيدته .

ونظرا للدور الكبير الذى لعبته هذه المحنة فى الدولة الاسلامية فى ذلك العصر ، ننقل بعض «محاضر» هذه الجلسات التى عقدت لامتحان العلماء والفقهاء (١) ، ونبدؤها بامتحان أحمد بن حنبل فى أيام المعتصم :

دعا المعتصم أحمد بن حنبل ، فأدخل والمعتصم جالس ، وابن أبى دواد وأصحابه فى حضرته ، والدار غاصة بأهلها ، وبالقضاة

(١) نقلت هذه المحاضر من كتاب ضحى الاسلام ج ٢ للمرحوم الاستاذ أحمد

والفقهاء من أتباع الدولة ، فأمرهم أن يناظروه ، وهذه خلاصة المناظرة :

المعتصم : ماتقول ؟.

ابن حنبل : أنا أشهد أن لا اله الا الله وأن جدك ابن عباس: يحكى أن وفد عبد القيس لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم بالايمان بالله ، فقال : أتدرون ما الايمان بالله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا الخمس من المغنم (يعنى بذلك أحمد بن حنبل أن ليس منه القول بخلق القرآن) .

أحد الحاضرين : قال الله تعالى : « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث » أف يكون محدث الا مخلوق ؟.

ابن حنبل : قال الله تعالى « والقرآن ذى الذكر » فالذكر هو القرآن ، وتلك ليس فيها ألف ولام .

لآخر : أليس قال الله خالق كل شيء ؟.

ابن حنبل : قال تعالى : « تدمر كل شيء بأمر ربها » فهل دمرت الا ما أراد الله ؟.

أثالث : ماتقول فى حديث عمران بن حصين : ان الله خلق الذكر ؟.

ابن حنبل : هذا خطأ ، ان الرواية « ان الله كتب الذكر »

وابسع : جاء فى حديث ابن مسعود : « ما خلق الله من جنة ولا

نار ، ولا سماء ولا أرض ، أعظم من آية الكرسي »

ابن حنبل : انما وقع الخلق على الجنة والنار ، والسماء والأرض

ولم يقع على القرآن ، يا أمير المؤمنين : أعطوني شيئاً من

كتاب الله ، أو سنة رسوله غير ما رددت به عليكم أقول

به .

خامس : انك تفقد ما سقناه اليك من الكتاب والسنة . ولكن

قولك بأن كلام الله غير مخلوق يؤدى الى التشبيه :

ابن حنبل : هو أحد صمد ، لاشييه له ولا عدل ، وهو كما

وصف به نفسه .

المعتصم : ويحك ما تقول ؟ .

ابن حنبل : يا أمير المؤمنين ، أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة

رسوله .

بعض الحاضرين : يحاجه بحجج عقلية .

ابن حنبل : ما أدري ما هذا ؟ انه ليس فى كتاب الله ولا سنة

رسوله .

بعض الحاضرين : يا أمير المؤمنين اذا توجهت له الحجة علينا

وثب ، واذا كلمناه بشيء يقول لا أدري ما هذا ؟ .

ابن أبى دواد : انه ضال مضل مبتدع .

وهكذا ينفذ المجلس ، ويعاد ابن حنبل الى الحبس ، ويوكل به من يناظره ، ويعاد الى مجلس آخر على هذا النمط ، واستمرت هذه المناظرات ثلاثة أيام . فلما ملوا مناظرته ، ويئسوا منه ، أمر المعتصم بضربه بالسياط ، ف ضرب كما قال المسعودي « ثمانية وثلاثين سوطا » حتى سال الدم منه ، وتعددت فيه الجراحات ، ثم أرسل الى السجن ، وأرسل اليه طبيب يعالج جراحاته ، فعالجه حتى برى . ويرون أن ابن أبي دواد حرض المعتصم على قتله ، وقال : « يا أمير المؤمنين ، ان تركته قيل انك تركت مذهب المأمون ، وسخطت قوله ، وأنه غلب خليفتي » . ولكن المعتصم لم يسمع في هذا قول ابن أبي دواد ولم يقتل ابن حنبل ، لأنه رأى أن جمهور الناس قد التفوا حول ابن حنبل أكثر من التفاهم حول أي شخص آخر ، فاذا قتله كانت فتنة . قال ميمون بن اصبغ : « أخرج أحمد بن حنبل بعد أن اجتمع الناس ، وضجوا ، حتى خاف السلطان » . ويروون أيضا أنه قال : « لو لم أفعل ذلك لوقع شر لا أقدر على دفعه » . وفوق ذلك فقد اعجب المعتصم بشجاعة ابن حنبل وثباته على ما يعتقد أنه الحق ، فلم يخف ولم يهن ، وكان المعتصم شجاعا يحب الشجعان .

وهذه صورة «محضر» آخر من محاضر تلك الجلسات التي امتحن فيها الفقهاء في موضوع خلق القرآن :

أحضر اسحق بن ابراهيم مشاهير العلماء ورءوس الناس ليمتحنهم في خلق القرآن :

اسحق بن ابراهيم : ما تقول فى القرآن ؟ .
بشر بن الوليد : القرآن كلام الله ؟ .

اسحق : لم أسألك عن هذا . أمخلوق هو ؟ .

بشر : الله خالق كل شىء .

اسحق : هل القرآن شىء ؟ .

بشر : هو شىء .

اسحق : فمخلوق هو ؟ .

بشر : ليس بخالق .

اسحق : لا أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟ .

بشر : ما أحسن غير ما قلت .

امتحان آخر :

اسحق : هل القرآن مخلوق .

على بن أبى مقاتل : القرآن كلام الله .

اسحق : لم أسألك عن هذا ، هل هو مخلوق .

على : هو كلام الله ، وإن أمرنا أمير المؤمنين بشىء سمعنا وأطعنا .

امتحان ثالث :

اسحق : هل القرآن مخلوق ؟ .

أبو حسان الزيادى : القرآن كلام الله ، والله خالق كل شىء ، وما

دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين امامنا وقد سمع ما لم نسمع ،

وعلم ما لم نعلم ، وإن أمرنا ائتمرنا ، وإن نهانا انتهينا ، وإن دعانا

أجبنا .

اسحق : هل القرآن مخلوق ؟.

أبو حسان : يعيد عليه مقالته .

اسحق : هذه مقالة أمير المؤمنين .

أبو حسان : قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس ، ولا يدعوهم إليها ، وإن أخبرتنى أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول : قلت ما أمرتنى ، فانك الثقة المأمون .

اسحق : ما أمرنى أن أبلغك شيئاً ، وإنما أمرنى أن أمتحنك .

امتحان رابع :

اسحق : ما تقول فى القرآن ؟.

أحمد بن حنبل : هو كلام الله .

اسحق : مخلوق هو ؟.

أحمد : هو كلام الله لا أزيد عليها .

اسحق : ما معنى أنه تعالى سميع بصير ؟.

أحمد : هو كما وصف نفسه .

اسحق : فما معناه ؟.

أحمد : لا أدرى ، هو كما وصف نفسه .

امتحان خامس :

اسحق : ما تقول فى القرآن ؟.

ابن البكاء : القرآن مجعول ، لقول الله تعالى : أنا جعلناه قرآنا

عربيا ، والقرآن محدث لقوله : « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث » .

اسحق : فالمجعول مخلوق ؟

ابن البكاء : لا أقول مخلوق ولكن مجعول

اسحق : فالقرآن مخلوق ؟

ابن البكاء : لا أقول مخلوق . ولكن مجعول .

وهكذا سارت الفتنة مندفة لا تلوى على شيء ، شاملة لا تبقى على شيء ، دامية تسيل دماء المعذنين ، وتزهق أرواحهم ، كالحة الوجه عابسة مدمرة ، وشغلت بها الدولة عن كل ما عداها ، وتفرغ لها الخلفاء ، وشغلوا بها ، ومن خلفهم رجال الدولة من المعتزلة ، ينفخون فى النار ، ويشعلون الأوار ، ويضرمون لهيبها كلما خبت .

أين كان محمد بن عبد الملك الزيات وسط هذه العواصف الهوجاء ، وما موقفه من هذه الفتنة ؟ ان تاريخه يكاد يسير مع هذه الفتنة جنباً الى جنب ، فقد نبتت الفتنة فى عهد المأمون ، وهو كاتب صغير فى دواوين الخلافة ، أو عامل فى إحدى وظائف القصر ، ومبلغ الظن أنه لم يشارك فى هذه الفتنة ، ولم يقم بدور إيجابى فيها ، نظراً لضالة مركزه ، ولانشغاله بالتطلع الى مركز أسمى من مركزه الذى يشغله ، ولأنه كان معنياً اذ ذاك باستكمال ثقافته ، والتزود بما يؤهله لمنصب الوزارة ، ولكننا نسأل عن

دوره في هذه الفتنة ، بعد أن شغل أكبر مناصب الدولة ، وأصبح الوزير الأول في بلاط المعتصم ، وصاحب الأمر والنهي في سياسة الحكم ، وبعد أن أطلق المعتصم يده في شئون الدولة ، وبسط له في النفوذ ، وسار على نهجه الخليفة الواثق . أين كان محمد ابن عبد الملك الزيات وابن أبي دواد - عدوه وخصمه - يشعلها فتنة عارمة ، زلزلت كيان الدولة ، وأثارت عليها سخط الجماهير ، وهو الوزير المسئول عن اقرار الأمن ، واستتباب النظام ، واقامة العدل بين الناس ؟؟ ولماذا لم يشر اليه اصبع التاريخ في كل أدوار هذه الحقنة ؟؟

هل كان ابن الزيات منحرفا عن المذهب السائد في أرجاء الدولة -وهو مذهب المعتزلة- لا يؤمن به، ولا يدين بما فيه من آراء ، ولا يرى رأى دعاته فيما ينادون به مما يمس العقائد ، فأثر أن ينزوى عن الأبصار ، ويتعد عن مساقط الضوء ، ويعيش بعيدا عن الفتنة ، حتى لا تتكشف عقيدته التي يؤثرها على مذهب المعتزلة ، ويظهر من مكنون رأيه ما استتر ؟؟. هذا احتمال . واحتمال ثان ، هو أن ابن الزيات الوزير قد شغلته مشاكل الحكم ، وأعباء الوزارة ، وتصريف شئونها ، والنظر في مصالح الناس ، فلم يجد من وقته فراغا يصرفه في تتبع أحداث هذه الفتنة ، أو المشاركة فيها ، أو الاسهام في مشاكلها . واحتمال ثالث ، هو أن ابن الزيات - وهو رجل سياسة وحكم - رأى في هذه الفتنة مسألة دينية ، لا تمت الى سياسة الدولة بسبب ، فلم يرد أن يقحم نفسه

في مسالكها المتشعبة ، ودروبها الملتوية ، تمشيا مع مبدأ فصل
 السلطات ، فتركها لرجال الدين يخوضون فيها مع الخليفة ،
 ويتحملون وزر نتائجها . وهناك احتمال أخير ، وهو أن ابن الزيات
 كان رجلا بعيد النظر ، صادق الحس ، فوضحت له رؤية الأحداث
 في هذه الظلمة الحالكة ، ورأى أين تقف جماهير الشعب من هذه
 الفتنة ، وأين يكون هواها ، وكيف ذهب ضحايا الفتنة بكل تقدير
 الشعب ومحبه ، ففضل أن يتعد عن مسرح الأحداث ، استجلابا
 لرضاء هذه الجماهير ، وطمعا في تأييدها ، وترك لعدوه أحمد
 ابن أبي دواد أن يذهب وحده بغضب الجماهير ، وأن يظفر بسخط
 الشعب دون شريك أو مزاحم ، ان كان سخط الشعوب ظفرا !! .
 كل هذه الاحتمالات تتزاحم أمام أعيننا ، وتتوارد على مخيلتنا ،
 نبحث عن أيها أصدق في الحكم على موقف ابن الزيات من هذه
 الفتنة ، وأيها أقرب منطقا ، علنا نصل من مناقشة هذه الاحتمالات
 الى اجابة واضحة صريحة تهدينا الى الجواب عن السؤال الذي
 يلح علينا . وهو ، لماذا اختفى اسم محمد بن عبد الملك الزيات
 وزير الدولة في كل مراحل هذه الفتنة أيام المعتصم والواثق ، ولم
 تسلط عليه الأضواء في أى موقف من مواقفها ؟ .

هل كان ابن الزيات — كما افترضنا أولا — لا يؤمن بمذهب
 المعتزلة ، ولا يدين بمعتقداتهم ، فهو نافر من فتنتهم أشد ما يكون
 النفور ، ناغم على أصحابها أكثر ما تكون النعمة ، له مذهبه الدينى
 الذى لا يربطه بالاعتزال سبب ، فسكت ، ودارى مذهبه بالسكوت

وآثر البعد عن صخب الفتنة وما صحبها من أحداث ، ليكون
بأمن من بطش الخليفة وكيد الخصوم اذا وقفوا منه على ما يغير
مذهبهم ، وبخاصة وقد رأى الخلفاء وأنصار الفتنة يفرقون فيها
الى أذقانهم ، ويقدمونها على أهم مشاكل الدولة ؟؟.

قد يكون. ولكن بماذا كان يدين الوزير من عقائد ومذاهب ؟
أكان من أنصار رجال السنة ، يقف منهم . فى هذه الفتنة بقلبه ،
ولا يستطيع الدفاع عنهم فيما اختبروا فيه ، ايثارا للعافية ؟ لم
تجد فى المصادر التى بين أيدينا ما يشير من قريب أو بعيد الى أن
ابن الزيات كان يدين بمذهب أهل السنة ، ويرى رأيهم ، ولم
تشر المصادر التى بين أيدينا الى موقف واحد يشتم
منه عطف الوزير على هؤلاء المعذنين المتحسين
فى عقائدهم على عهد المعتصم أو الواثق . ولم نعرف عنه
أنه تشيع لواحد منهم ، أو حاول التخفيف عما يلاقه على
أيدى خصومه . ولكن مصادر التاريخ تكشف لنا الغطاء عن عقيدة
ابن الزيات وعن مذهبه فى جانب آخر ، تقول هذه المصادر ان
ابن الزيات كان جهميا ، يدين بمذهب جهم بن صفوان الترمذى ،
ويرى رأيه فى أصول العقائد ، وقد استفاض هذا رأى فى كثير
من مصادر التاريخ قديمها وحديثها . على أننا لو سلمنا بصحة
ما نسبته هذه المصادر الى ابن الزيات من اعتناقه لمذهب جهم بن
صفوان ، فكيف استطاع الوزير أن يكون جهميا ، فى الوقت
الذى كان فيه الخليفة - وهو رأس الدولة - وكبار حاشيته من

المعتزلة ؟ وكيف يتجه الخليفة الى اليمين ، ويتجه وزيره الى الشمال ؟ وكيف ينادى الخليفة برأى فى الدين يحمل الشعب عليه ، وينادى وزيره برأى آخر يناقضه ؟.

ان الاجابة على هذه الأسئلة تقتضينا أن نلم المأمة قصيرة بمذهب الجهمية ، الذى كان يتبعه ابن الزيات وينشيع له ، لنعرف أين يقف مذهب هؤلاء الجهميين من مذهب المعتزلة ، وهل هناك تضارب كبير فى الرأى بين المذهبين ، أم أن الفوارق بينهما لا ندعو الى العجب من موقف الوزير ، لأنها فوارق فى الشكل دون الجوهر ؟؟.

يقول (١) الشهرستانى عن مذهب الجهمية : « هم أصحاب جهم بن صفوان ، وهو من الجبرية الخالصة ، ظهرت بدعته بترمد وقتله سالم بن أحوز المارنى بسرو فى آخر ملك بنى أمية ، ووافق المعتزلة فى نفى الصفات الأزلية ، وزاد عليهم بأشياء ، منها قوله : « لا يجوز أن يوصف البارئ بصفة يوصف بها خلقه ، لأن ذلك يقتضى تشبيها ، فنفى كونه حيا عالما ، وأثبت كونه قادرا فاعلا خالقا ، لأنه لا يوصف شيء من خلقه بالقدرة والفعل والخلق » ومنها قوله فى القدرة الحادثة : « ان الانسان ليس يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة ، وانما (هو) مجبور فى أفعاله ، لا قدرة له ولا ارادة ولا اختيار ، وانما يخلق الله تعالى الأفعال فيه ، على حسب ما يخلق فى سائر الجمادات ، وينسب اليه الأفعال مجازا ،

(١) الملل والنحل للامام أبى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى

كما ينسب الى الجمادات ، كما يقال أثمرت الشجرة، وجرى الماء وتحرك الحجر ، وطلعت الشمس وغربت ، وتغيّمت السماء وأمطرت ، وأزهرت الأرض وأنبتت ، الى غير ذلك . والشواهد والعقاب جبر ، كما أن الأفعال جبر ، وإذا ثبت الجبر ، فالتكليف أيضا كان جبّرا » ومن أقواله : « ان الجنة والنار يفنيان بعد دخول أهلهما فيهما ، اذ لا يتصور حركات لا تنتهى آخرها ، كما لا تتصور حركات لا تنتهى أولا ، وحمل قوله تعالى خالدين فيها على المبالغة والتأكيد ، دون الحقيقة فى التخليد ، كما يقال : خلد الله ملك فلان ، واستشهد على الانقطاع بقوله تعالى : « خالدين فيها مادامت السموات والأرض الا ما شاء ربك » فالآية اشتملت على شرطية واستثناء ، والخلود والتأييد لا شرط فيه ولا استثناء ، ومنها قوله : من أتى بالمعرفة ثم جحد بلسانه لم يكفر بجحده ، لأن المعرفة لا تزول بالجحد فهو مؤمن . ومن قوله : ان الايمان لا يتبعض أى لا ينقسم الى عقد وقول وعمل ، ولا يتفاضل أهله فيه ، فايما ان الأنبياء وايمان الأمة على نمط واحد ، اذ المعارف لا تتفاضل . وكان السلف كلهم من أشد الرادين عليه ، ونسبته الى التعطيل المحض ، وهو أيضا موافق للمعتزلة فى نفى الرؤية ، واثبات خلق الكلام وإيجاد المعارف بالعقل قبل ورود الشرع . »

والمقرئزى (١) فى خططه يقسم الفرق أربع طوائف وهى :

(١) خطط المقرئزى الجزء الثانى ٢٤٩ - ٢٥١

١ - المعتزلة : وهم الغلاة فى نفى الصفات الالهية ، والقائلون بالعدل والتوحيد ، وأن المعارف كلها عقلية حصولا ووجوبا قبل الشرع وبعده .

٢ - المشبهة : وهم الذين يعالون فى اثبات صفات الله ضد المعتزلة .

٣ - القدرية : وهم الغلاة فى اثبات القدرة للعبد فى اثبات الخلق والايجاد ، وأنه لا يحتاج فى ذلك الى معاونة الله .

٤ - المجبرة : وهم الغلاة فى نفى استطاعة العبد قبل الفعل وبعده ومعه ، ونفى الاختيار له ، ونفى الكسب .

وبعد أن ذكر المقرضى هذه الفرق بالتقسيم الذى تقدم قال : « والجهمية جزء من الفرقة الرابعة ، وهم يعالون فى نفى استطاعة العبد كما تقدم فى المجبرة ، ونفى الاختيار له ونفى الكسب ، وهم أتباع جهم بن صفوان الترمذى ، مولى راسب الذى قتل فى آخر دولة بنى أمية ، وهو ينفى الصفات الالهية كلها ويقول لا يجوز أن يوصف البارئ تعالى بصفة يوصف بها خلقه ، وإن الانسان لا يقدر على شيء ، ولا يوصف بالقدرة ولا بالاستطاعة وأن الجنة والنار يفتيان ، وتنقطع حركات أهلها ، وأن من عرف الله ولم ينطق بالايمان لم يكفر ، لأن العلم لا يزول بالصمت وهو مؤمن مع ذلك . وقد كفره المعتزلة فى نفى الاستطاعة ، وكفره أهل السنة فى نفى الصفات وخلق القرآن ونفى الرؤية ، وانفرد بجواز الخروج على السلطان الجائر » .

ويقول صاحب كتاب أمراء البيان (١) : « كان ابن الزيات
جهميا ، يقول بمذهب جهم بن صفوان ، وكان يوافق المعتزلة في
مسائل كثيرة ، ومنها القول بخلق القرآن ، وأن الله لا يرى في
الآخرة » .

وقال الدكتور أحمد أمين بعد أن ذكر مصرع معبد الجهني على
يد الحجاج ، ومصرع غيلان الدمشقي على يد هشام بن عبد الملك
« وجهم بن صفوان ، وإن كان جبريا إلا أنه يعد من شيوخ
المعتزلة، وقال بخلق القرآن، وقد خرج مع الحارث بن سريج على
بنى أمية فقتل » .

وقال في موضع آخر عند الكلام على الجبر والاختيار :
« والواقع أن هذه مشكلة المشاكل ، سميت بالجبر والاختيار
وبحرية الإرادة ، وبالقضاء والقدر ، وحار فيها الفلاسفة قديما
وحديثا ، فأثارها الفلاسفة اليونانيون قبل المعتزلة ، وكان بعضهم
يرى أن الإرادة حرة في الاختيار كالأبيقوريين ، وبعضهم كان
يرى أنها مجبورة على السير في طريق لا يمكنها أن
تتعداده كالرواقيين ، ولما جاء الاسلام ، وجاء دور
البحث أثاروا هذه المسألة ، فقال الجبريون وعلى
رأسهم - جهم بن صفوان - : « إن الإنسان مجبور وليست

(١) أمراء البيان ج ١

(٢) ضحى الاسلام الجزء الثالث

له ارادة حرة ، ولا قدرة له على خلق أفعاله ، وهو كالريشة
في مهب الريح ، أو كالخشبة بين يدي الأمواج ، وانما يخلق الله
الأعمال على يديه » وقالت المعتزلة : « ان ارادة الانسان حرة ،
وقدرته تخلق مايعمل ، وفي استطاعته أن يفعل وألا يفعل ، وهو
يفعل ما يختار » .

من هذا العرض لمذهب الجهمية - كما عرضنا من قبل لمذهب
المعتزلة - نرى أن وجوه الاختلاف بين المذهبين تكاد لا توجد في
المسائل الكبرى التي كانت تشغل الدولة اذذاك ، بل هي معدومة
بالفعل ، لأن كلا المذهبين يتفق على نفى الصفات عن الله
سبحانه وتعالى ، وبالتالي يتفق المذهبان على أن القرآن مخلوق ،
فجهن بن صفوان يسائر المعتزلة في هذا الرأي ، حتى عده المرحوم
الأستاذ أحمد أمين من شيوخ المعتزلة ولم يخالفهم الا في موضوع
الجبر والاختيار ، وبعض المسائل الأخرى . فاذا صدق ما قاله
المؤرخون من أن محمد بن عبد الملك الزيات كان جهنيا ، يدين
بمذهب الجهمية ، نراه لم يبعد كثيرا برأيه ومعتقده عن المذهب
الرسمي ، الذي كان يدين به الخلفاء ، وتؤيده الدولة تأييدا رسميا
والذي تبلور في القول بخلق القرآن ، وأصبح هذا القول علما
على تلك الفتنة .

ولعل ما في مذهب الجهمية من ميل الى القول بالجبر ، وما
يدعو اليه هذا القول من التسليم ، هو الذي حدا بابن الزيات الى
أن يقف هذا الموقف السلبي من الفتنة ، فلم يشارك فيها مشاركة

إيجابية ، لأن ما أثارته الفتنة من عواصف وأعاصير كان أمرا مقدرا محتوما ، وكل ما قيل فيها من تأييد ونفى قدرة الله وخلقه على السنة قائله ، ليس لهم فيه اختيار ولا كسب ، فوقف ابن الزيات من الفتنة موقف المحاييد ، ولم يدل بدلوه في الدلاء ، وأثر أن يطوى نفسه على عقيدته ، دون أن يشعل ضرامها مع مشعلها ، ودون أن يحمل الناس على الخوض فيها ، لأن كلاميسر لما خلق له .

وقد لا تكون جهمية ابن الزيات وحدها هي التي صرفته عن أن يكون له في الفتنة دور معلوم ، فهناك الاحتمالات التي ذكرناها قد يكون لها أثر كبير في هذا الأمر ، ولا نستطيع أن نسقطها من حسابنا في تقدير موقف ابن الزيات: فليس يبعد أن يكون انصراف ابن الزيات الى مشاكل الدولة السياسية، ومراقبة العمال وحسابهم والاتصال بأطراف هذا الملك الشاسع ، وتدير شئون الحرب والخراج ، قد شغله كل هذا عن الخوض في تلك الفتنة ، ولم يدع له من الوقت ما ينفقه في تتبع أدوارها ، وملاحقة أحداثها . كما أنه ليس ببعيد أن يكون ابن الزيات قد نظر الى الفتنة من زاويتها الدينية - وهو رجل سياسة لادين - فأثر أن يترك الفتنة لرجال الدين من حاشية الخلفاء ، وعلى رأسهم قاضي القضاة أحمد بن أبي دواد ، الذي خب فيها ووضع .

على أنني أرجح أن يكون سر اختفاء ابن الزيات عن مسرح الحوادث في تلك الفتنة هو ما لمسه ببعده نظره من عدم رضا الشعب

عن تلك البدعة الجديدة ، وما تدعو اليه من زعزعة العقائد التي توارثها منذ أيام السلف الصالح ، وما رآه من التفاف الجماهير حول شهداء الفتنة ، وبخاصة الامام أحمد بن حنبل ، وما أحس به بثاقب فكره من غليان مراحل الحقد في نفوس الناس على مشيئ هذه الفتنة . وابن الزيات قد رسم سياسته على أن يكون قريبا من قلوب الناس ، جيبيا الى الشعب ، بعيدا عن المشاركة في التهجيم على عقائده ، مادامت هذه العقائد لا تمس سياسة الحكم من قريب أو بعيد . ولذلك يقول عنه بعض المؤرخين : « كان ابن الزيات سياسى ذلك العصر المنقطع النظير - يراعى عواطف العوام ، ويحاذر ما يهيجهم ، ويقول : «ارجاف العوام مقدمة الأحداث»

هذا ما أرجحه ، مضافا اليه تلك العداوة الشديدة التي كانت قائمة بين محمد بن عبد الملك الزيات والقاضى أحمد بن أبى دواد الذى كان على رأس تلك الفتنة ، فأخلى ابن الزيات لعدوه الميدان وصول فيه ويجول ، ويورط الخلفاء فى تعذيب الفقهاء ، ويحملهم على قتلهم ، والتمثيل بهم ، ليذهب وحده بأوزار الفتنة ، وتنصب على رأسه لعنات الشعب ، وتحيط به كراهيته ، وفى هذا كله مكسب للوزير : فكل أرض يخسرها ابن أبى دواد أمام الشعب ، تضاف لحساب محمد بن عبد الملك الزيات فى ميزان الحسنات .

الفصل السابع النهاية

يكاد الاجماع ينعقد على أن حياة الوزير ابن الزيات ، التي ظلت تتألق فى سماء بغداد فى عهود ثلاثة من الخلفاء ، قد خبا بريقها على غير ماكان يتوقع ، وأن نجمة اللامع قد هوى على غير ماكان ينتظر ، وأن هذه الآمال العريضة التي كانت تجيش بها نفس ابن الزيات ، قد تلاشت فى مأساة فاجعة ، تستثير النكر ، وتبعث الشجى !!

ولقد أفاض المؤرخون فى وصف هذه المأساة ، ونقلوها إلينا فى صورتها المعتمدة القاتمة ، ولم تكن بشاعة المأساة فى الاغتيال وانما فى أسلوبه ، ذلك الأسلوب الذى ينم عن الضراوة التي كانت مسيطرة على الجناة الذين أنهوا حياة ابن الزيات على هذه الصورة وهؤلاء أسلاف ابن الزيات من الوزراء والكتاب اغتالهم خلفاؤهم بثتى الوسائل ، على أن هذه الوسائل لم تبلغ من البشاعة والنكر ما اتبع فى طريقة مقتل ابن الزيات ، بل كان مصرعه صورة فريدة فى سلسلة هذه المآسى ، التي لطخت أيدي الخلفاء العباسيين منذ عهد السفاح .

ولو أنك تتبعت مصارع الوزراء والكتاب منذ قامت الدولة العباسية لوجدت للخلفاء العباسيين عذرا فى كثير من حوادث

الاجتيال التى قاموا بها : فأغلب الذين اغتيلوا قد ارتكبوا أعمالا تبرر اغتيالهم ، فأبو سلمة الخلال أراد أن يحدث انقلابا ، وينقل العرش الى العلويين ، ويخون قضية السفاح مؤسس الدولة ، وأبو مسلم الخراسانى تطاول على مقام الخلافة وقدم نفسه على المنصور ، وأراد أن يشاركه الحكم ، فأنهى المنصور حياته ، وأبو أيوب المورى . استخدم أجهزة الدولة لصالحه وصالح أقربائه ، وأشاع المحسوبية البغيضة ، واغتال ابن المنصور ففسد له السم ، وسرق أموال المنصور وخزائنه ، والبرامكة طغوا على الرشيد وأقاموا دولة فارسية تحت شعار العباسيين ، وكذلك كان شأن الفضل بن سهل مع المأمون . أما ابن الزيات فلم يحاول أن يحدث انقلابا فى نظام الدولة ، ولم يرتكب خيانة ضد العرش ، ولم يستغل الحكم لصالحه أو صالح أحد من عشيرته ، بل كان على عكس ذلك لا يحابى ولا يجامل ، ولا يسدى الى أصدق أصدقائه أى خدمة على حساب الصالح العام ، حتى كانت سياسته الحازمة مثار سخط الخصوم والأصدقاء .

أما أسباب نكبة ابن الزيات فتعزى الى سببين : السبب الأول هو ما أشار به ابن الزيات عقب وفاة الواثق بنولية محمد بن الواثق بدلا من المتوكل ، (١) « فعارضه فى ذلك القاضى أحمد بن أبى دواد ، وأشار بنولية المتوكل ، وقام فى ذلك وقعد ، حتى عممه يده ، وألبسه البردة ، وقبله بين عينيه ، وتبعه فى ذلك بقية القواد ،

(١) ابن خلكان ج ٤

بعد أن اعترضوا على تولية ابن الواثق وهو غلام صغير أمرد ،
 قلم يسع ابن الزياد إلا أن يستسلم للأمر الواقع ، وينزل على رأى
 الجماعة ، واتتصر عليه غريمه ابن أبى دواد فى هذه الجولة . أما
 السبب الثانى فسوء المعاملة التى كان يلقاها المتوكل من الوزير
 أيام ولايته للعهد فى حياة أخيه الواثق ، والتضييق عليه فى
 مخصصاته التى كان ينفقها فى مجالس اللهو والشراب ، وقد
 استعرض الطبرى (١) فى حوادث سنة ثلاث وثلاثين ومائتين قصة
 مصرع ابن الزياد وأسبابها فقال : « وفى هذه السنة قبض المتوكل
 على الوزير ابن الزياد ، وحبسه ، وسبب ذلك أن الواثق استوزر
 ابن الزياد وفوض الأمور كلها إليه ، وكان الواثق غاضبا على
 أخيه جعفر المتوكل ، فأتى المتوكل الى ابن الزياد يسأله أن يكلم
 الواثق ليرضى عنه ، فوقف بين يديه لا يكلمه ، ثم أشار عليه بالعود
 فقعده ، فلما فرغ من الكتب التى بين يديه التفت إليه كالمتهدد ،
 وقال : ما جاء بك ؟ فقال : جئت أسأل أمير المؤمنين الرضا عنى ،
 فقال ابن الزياد لمن حوله : انظروا ، يغضب أخاه ثم يسألنى أن
 أسترضيه له ، اذهب ، فإذا صلحت رضى عنك ، فقام من عنده حزينا
 فأتى أحمد بن أبى دواد ، فقام إليه أحمد ، واستقبله على باب
 البيت وقبله ، وقال : ما حاجتك جعلت فداك ؟ قال : جئت لتسترضى
 أمير المؤمنين لى ، قال : افعل ونعمة عين وكرامة ، ثم كلم الواثق
 فى أخيه حتى رضى عنه . ولما توفى الواثق أشار محمد بن عبد

الملك الزيات بآبن الواثق وتكلم فى ذلك ، فكان سبب هلاك
 ابن الزيات ، ثم أمهله أربعين يوما فى الوزارة ، وبعد ذلك أمر
 ايتاخ بأخذه وعذابه ، فبعث اليه ايتاخ ، فظن أنه دعى به ، فركب
 مبادرا يظن أن الخليفة دعا به ، فلما حاذى منزل ايتاخ قيل له :
 اعدل الى منزل أبى منصور ، فعدل وأوجس فى نفسه خيفة ، ثم
 ادخل حجرة وأخذ منه سيفه ومنطقته وقلنسوته ودراعه ، وأرسل
 ايتاخ بنهب داره وأخذ ما فيها من متاع ودواب وجوار وغلمان ،
 ووجه المتوكل الى بغداد فى قبض ما هنالك من أمواله وخدمه ،
 وأمر أبا الوزير بقبض ضياعه وضياع أهل بيته حيث كانت ، ولم
 يزل ابن الزيات فى حبسه مطلقا ، ثم أمر بتقييده فقيد ، وامتنع من
 الطعام ، وكان لا يدوق شيئا ، وكان شديد الجزع فى حبسه كثير
 البكاء ، قليل الكلام ، كثير التفكير ، فمكث أياما ثم سهر ، ومنع
 من النوم ، يساهر وينخس بمسلة ، ثم أمر بتنور من خشب فيه
 مسامير حديد فأدخل فيه وعذب به أياما . ذكر الدنداني أن الموكل
 بعذابه قال : كنت أخرج وأقفل الباب عليه ، فيمد يديه الى السماء
 جميعا حتى يندق موضع كتفيه ، ثم يدخل التنور فيجلس ، والتنور
 فيه مسامير حديد ، وفى وسطه خشبة معترضة ، يجلس عليها
 المعذب اذا أراد أن يستريح ، فيجلس على الخشبة ساعة ، فاذا
 سمع صوت الباب يفتح قام قائما كما كان ثم شدوا عليه ، قال
 المعذب له : خاتلته يوما وأريته أنى أقفلت الباب ، ولم
 أقفله ، ثم مكث قليلا ، ثم دفعت الباب غفلة فاذا هو

قاعد فى التنور على الخشبة ، فقلت ، أراك تعمل هذا العمل ، فكنت اذا خرجت بعد ذلك شددت خناقه ، فكان لا يقدر على القعود ، واستللت الخشبة حتى كانت تكون بين رجله ، فمامكث بعد ذلك الا أياما حتى مات . واختلف فى الذى قتل به فقيل : بطح ف ضرب على بطنه خمسين مفرقة ، ثم قلب ف ضرب على ظهره مثلها ، فمات وهو يضرب ، وهم لا يعلمون ، فأصبح ميتا قد التوت عنقه وتفت لحيته ، وقيل مات فى التنور بغير ضرب . وكان يسمع قبل موته بيومين أو ثلاثة يقول لنفسه : يا محمد لم تنفعك النعمة والدواب الفره ، والدار النظيفة ، والكسوة الفاخرة وأنت فى عافية ، حتى طلبت الوزارة ، ذق ما عملت بنفسك ! فكان يكرر ذلك على نفسه ، فلما كان قبل موته بيوم ذهب عنه غتاب نفسه ، فكان لا يزيد على الشهد وذكر الله ، فلما مات دفعت جثته الى ابنة سليمان وعبد الله وكانا محبوبين ، وقد طرحت الجثة على باب من خشب ، فى قميصه الذى حبس فيه وقد اتسخ ، فغسلاه على الباب ودفناه ، وحفراه فلم يعمقا ، فذكر أن الكلاب نبشته وأكلت لحمه .

هذه هى رواية الطبرى ، ويروى ابن خلكان : « أن المتوكل لما قبض على ابن الزيات أمر بإدخاله التنور ، وقيدته بخمسة عشر رطلا من الحديد ، فقال : يا أمير المؤمنين ارحمنى ، فقيل له : الرحمة خور فى الطبيعة كما كان يقول للناس » ولم تخرج أقوال بقية المؤرخين عما ورد فى كلام الطبرى وابن خلكان

وبعد فهل كان المتوكل منصفا في نكبة وزيره واغتياله على
هذه الصورة النكراء ، التي لم يسمع بمثلها في مصارع الوزراء
الذين اغتيلوا قبله ؟ وهل كانت معاملة الوزير للمتوكل أيام ولايته
للعهد ، وترشيحه لابن الواثق للخلافة كافيين لتبرير هذه الجريمة ؟
لقد كان سر الجفوة بين الوزير وولى العهد هى سيرة المتوكل
وامعانه فى اللهو ، حتى أغضب عليه قلب الواثق . والوزير يعلم
ما يقارفه المتوكل من آثام ، وما يأتية من فجور مع بطاقته من أبناء
الأثرالك ، ويعلم فوق ذلك رأى الخليفة فيه ، وبرمه بتصرفاته
وسفهه ، وابن الزيات بطبيعة عمله حريص على أموال الدولة
لا يسمح بها أن تنفق فى عبث الأمراء ، ومجالس لهوهم ، لأن المال
مال الأمة ، والأجدر به أن ينفق على مصالح الأمة ، وصالح الرعية ،
فابن الزيات لا يبالى غضب المتوكل حين يعامله بهذه الجفوة لسوء
سيرته ، وكثرة نفقاته التى كان يلحف فى طلبها من الوزير كلما
اشتدت حاجته الى المال . وقد عامل ابن الزيات الواثق مثل هذه
المعاملة أيام ولايته للعهد ، فكان ينقص من أعطياته التى يأمر بها
المعتصم ، وكان يقصده فى ضياعه وأملاكه ، وكان يضربه بالمقرعة
يروضه على الجلوس الى أستاذه ، ومع ذلك اضطر الواثق الى أن
يقلد ابن الزيات الوزارة ، لأنه رأى الملك فى حاجة الى ابن الزيات ،
وكفر عن ايمانه التى أقسم بها على قتله اذا ولى العرش . فكان
بذلك أبعد نظرا من أخيه .

أما موقف ابن الزيات من تولى ابن الواثق الخلافة فهو احتهاد

لرأيه ، لما يعلمه من سيرة المتوكل أيام ولايته للعهد ، فرأى أن أمر
الخلافة لا يستقيم اذا تولاها هذا العايب المستهتر ، بل ستضيع
هيبتها ، وتضعف مكاتبتها ، فآثر أن يرشح ابن الواثق ، على أن
يكون رمزا للخليفة حتى يبلغ الحلم ، ويقوم عنه كبار رجال الدولة
بسياسة الأمر وتدير الحكم حتى يكبر . وانتهاز أحمد بن أبي دواد
عدو الوزير هذه الفرصة السانحة ليبيع المتوكل ، ويطعن غريمه
هذه الطعنة القاتلة .

لقد كان يكفي لشفاء أحقاد المتوكل على الوزير أن يبعده عن
الحكم ، أو يستصفى أمواله ، اذا لم يكن الصفح من خلائقه .. أما
أن يقتله على هذه الصورة ، ويترك جثته للكلاب تنهشها كما روى
الطبري ، فقد بز أسلافه في الجرم ، ولطخ يديه بأبشع جريمة
سياسية ارتكبت في عصر العباسيين .

وهكذا أسدل الستار على حياة الوزير الكبير محمد بن
عبد الملك الزيات ، وانطفأ ذلك السراج الذي أضاء بلاط العباسيين
يعلمه وأدبه ، وحسن سياسته ، مدى خمسة عشر عاما ، وخبا ذلك
القبس الذي أومض سناه في أندية الأدب ، ومجالس العلماء
ودواوين الحكم ، وانهار صرح شامخ من صروح الأعلام في مأساة
صارخة ، ونهاية يندى لها الجبين ، ويتفرع من أجلها ضمير
الإنسانية .

ويا لها من نهاية !! ..